# أَقْسَامُ التَّوْحِيدِ وَالْمُوَحِّدِينَ



الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م




الكويت- الجهراء- القيصرية القديمة- مجمع كابيتول مول- السرداب- محل ٢٤
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
( +965 ) 99627333 - ( +965 ) 51155398

## الموزعون المعتمدون

دار أندلسية للنشر والتوزيع
( الكويت )
darandalusia@hotmail.com
(+965) 94747176

دار التدمرية للنشر والتوزيع
( الرياض )
tadmoria@hotmail.com
(+966) 114925192

مكتبة الميمنة المدنية
( المدينة المنورة )
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع
( جدة )
hassan_hyge@hotmail.com
(+966) 504395716

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع
( مكة المكرمة )
alasadi2000@hotmail.com
(+966) 125273037

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع
( مصر الجديدة )
mofakroun@gmail.com
(+2) 01110117447

# أقسام التوحيد والموحدين

تأليف الفقير إلى الله

د. عايض بن فدغوش الحارثي

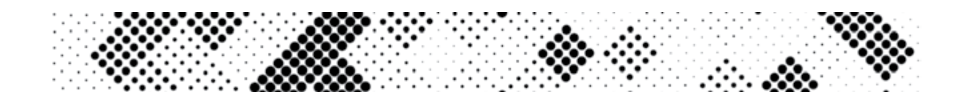
١٣٧٩هـ - ١٤٢٩هـ

عناية تلميذه

د. محمد بن سرار اليامي

دار الظاهرية للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحیم



## كلمات لابد منها

فـي عـام ١٤١٣ للهجـرة تحديـداً كان قبولـي لمرحلـة البكلوريـوس فـي جامعـة الملـك سـعود فـي كليـة التربيـة بقسـم الدراسـات الإسـلامية تخصـص قـرآن وحديـث... وفيهـا تمامـا كانـت سـكنى والـدي رحمـه اللـه والأسـرة الكريمـة فـي إسـكان القـوات البحريـة بطريق الخـرج، نظرا لأصـل عمـل الوالـد الوظيفـي كعسـكري فـي القـوات البحريـة السـعودية وكان مـن توفيـق اللـه للطالـب الجامعـي حديـث القبـول فـي جامعتـه؛ أن إمـام مسـجد الحـي «مسـجد عثمان بـن عفان رضـي اللـه عنه» هو شـيخنا الفقيـه المربـي المتواضـع عايض بن فدغوش الشـدادي الحارثـي، وكان إذ ذاك يشـغل منصـب كبير المرشـدين الدينيين فـي القوات المسـلحة ورأيت علمـاً وحلمـاً وأدبـاً وتقـوى وورع مـا رأيتـه إلا فـي الأئمـة الكبـار أمثـال شـيخنا ابـن بـاز وابـن عثيمين –رحـم اللـه الجميع– ولمّـا علمـت بتتلمذه عليهـم، وقربـه منهـم زاد قدره عنـدي وزادت محبتـه، ولزمته في مسـجده، وبيتـه أربـع سـنين ابتـداءً كانـت مـن أمتـع النعـم علـى العبـد الفقيـر، فقـد قـرأت عليـه، أو حضـرت، وهـو يقـرأ عليه؛ الـروض وحاشـية ابن قاسـم، وتفسـير ابـن كثيـر، وفتح المجيد، وتيسـير العزيـز، وكتـاب التوحيد، فضلا عـن المتـون القصيـرة لأئمـة الدعـوة النجديـة، ثم كلفنـي بشـرح الأربعين النوويـة للطـلاب الصغار في درس القرآن والذين كنت أجالسـهم وأشـرف عليهـم، وكان يحضـر معنـا أحيانا كثيـرة فأبنائه معنـا وبيننا –وفقهـم الله لبر

والدهـم- وكان كثيـرا مـا يخصنـي بالدعـوة لحضـور مناسـباته الخاصـة، والعامـة علـى سـماحة فـي طبعـه ولطـف فـي أسـلوبه، وجمـال فـي بيانـه يشـوبه لثغـة لطيفـة تجمـل صوتـه -رحمـه اللـه رحمـة واسـعة- وكان هـو مـن أول الداعميـن لـي والدافعيـن لـي إلـى الكتابـة، وقـد حثنـي كثيرا عليهـا ونشـر لـي مقالا فـي مجلة الجنـدي المسـلم والتي كانـت تصدر من القـوات المسـلحة كان بعنـوان:

حيـاة عالـم ترجمت فيـه للجانب العلمي فـي حياة الصحابـي الجليل معـاذ بـن جبـل، فلما طالعـه وأعجبه، قـال ما رأيك ننشـره ففرحـت، كأول مقـال ينشـر لي، وأنـا طالب جامعي فـي أول العتبـات، عـام ١٤١٣ للهجرة المباركـة، ثـم سـألني يا محمـد، هل لك مـن كنية تكتنـي بها؟؟

قلـت لـه: لا... ولكني أحب حِبَّ رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، وابـن حِبـه، رضـي اللـه عنهم، قـال فأنـت إذا «أبو أسـامة» واسـتمرت هذه الكنيـة حتـى مات شـيخنا الإمام ابن بـاز، ورزقت بولـدي الأول، وعرضت علـى والـدي سـرَّار التسـمية بـه، ففـي عرفنـا أن التسـمية بالوالـد نـوع بر، ورغبـت فـي ذلك، فقـال لي:

اتركـه لـي، وسأسـميه أنـا، ولكن لا تسـميه باسـمي...، ومـا ذاك إلا تواضعـا منـه -رحمـه اللـه رحمة واسـعة-.

وهـو يعلـم عظيم حبي لشـيخنا ابن بـاز وتأثـري بها كثيرا فـي حياتي فقال:

ما رأيك أن نسميه «عبد العزيز»...

ففرحت، وطربت، ونسيت كنيتي الأولى...

وأصبحـت «أبـو عبد العزيز» المقصود كان شـيخنا عايـض رحمه الله مفصـل تحـول فـي حياتي المعرفيـة والشـخصية، للعنايـة بالقلـم والكتابة، والعنايـة بالمدعوييـن، والترفق بهم، والترسـل في الخطـاب، والتأني...

وكان إذا طبـع كتابـا أو نشـر مقالا يبادرني بنسـخة خاصـة، ومن ذلك كتابنـا فـي هـذا المقام «أقسـام التوحيـد والموحدين» والذي سُـرَّ بـه الكثير مـن العلمـاء إبـان صـدوره... ونشـطت همتـي وهمة ورثـة شـيخنا لخدمة إنتاجـه العلمـي، وكان هـذا الكتـاب باكـورة هـذا العمـل، ومقدمه، عسـى اللـه جل وعـز أن يثقـل به ميـزان صالحاتـه، وأن ينفـع به...

هـذه نتف مـن الذكريـات معه، وهـي والله كثيـرة، كتبتهـا على عجل ووجـل... رحـم اللـه شـيخنا رحمـة واسـعة وجمعنـا بـه فـي الفـردوس الأعلـى، وجـزى اللـه ورثتـه البـررة خيـر الجـزاء، وهي رسـالة منهـم لكل وريـث علـم... اللـه اللـه فـي نشـر العلـم النافـع، فهو مـن العمـل الصالح وباللـه التوفيق..

**بقي أن أقول هذه توقيعاته في حياتي:**

وهـي عبـارات أثرتنـي، وأثـرت فـي حياتي ،تفـوه بهـا شـيخنا كثيراً، وكان دائمـا يؤكـد عليهـا ...

١ - يـا محمـد عليـك بجـادة كبـار العلمـاء...ولا تلتفـت لغيرهـم... البته.

٢- لـم أرى أسـعد مـن رجـل وفقه اللـه لعلم الشـريعة علـى الكتاب والسـنة بفهـم السـلف الصالح ...

٣- يـا محمـد رِدْ حيـث ورد القـوم، والزم الكتـاب والسـنة عند أئمة

العلم ...

٤- فـرح كثيـراً، عندمـا علـم بحضوري دروس شـيخنا ابن بـاز وكان يحثنـي على الاسـتمرار .

٥- واللـه إنـي أحبـك ... أوصيـك بالدعـوة إلـى اللـه بالحسـنى والحكمـة والموعظـة الحسـنة ...

٦- إيـاك والأحزاب والجماعات المشـبوهة، وغيرهـا، والتي أضرت بالإسـلام أكثـر مما نفعتـه ...مهما ادعت أنهـا صادقة ..

٧- عليك بسـلوك منهاج أئمة السـلف في الفهـم، والعلم، فمنهجهم، أسـلم، وأحكم، وأعلم رحمهم الله.

٨- عليـك بالأصـول ...أصـول العلـوم ،وأصـول الكتـب، ففيهـا الكفايـة.

٩- الإصلاح بين الناس باب فضل عظيم ، فلا تنساه ..

١٠- ووالله إنهـا لا تـكاد تغيـب عـن عينـي بسـمته اللطيفـة فـي كل مـرة أقابلـه ...رحمـه الله رحمـة واسـعة وجمعنا بـه في الفـردوس الأعلى ووالـدي والمسـلمين أجمعين ..

وكتبه

د.محمدبن سرّاراليامي

بسم الله الرحمن الرحيم

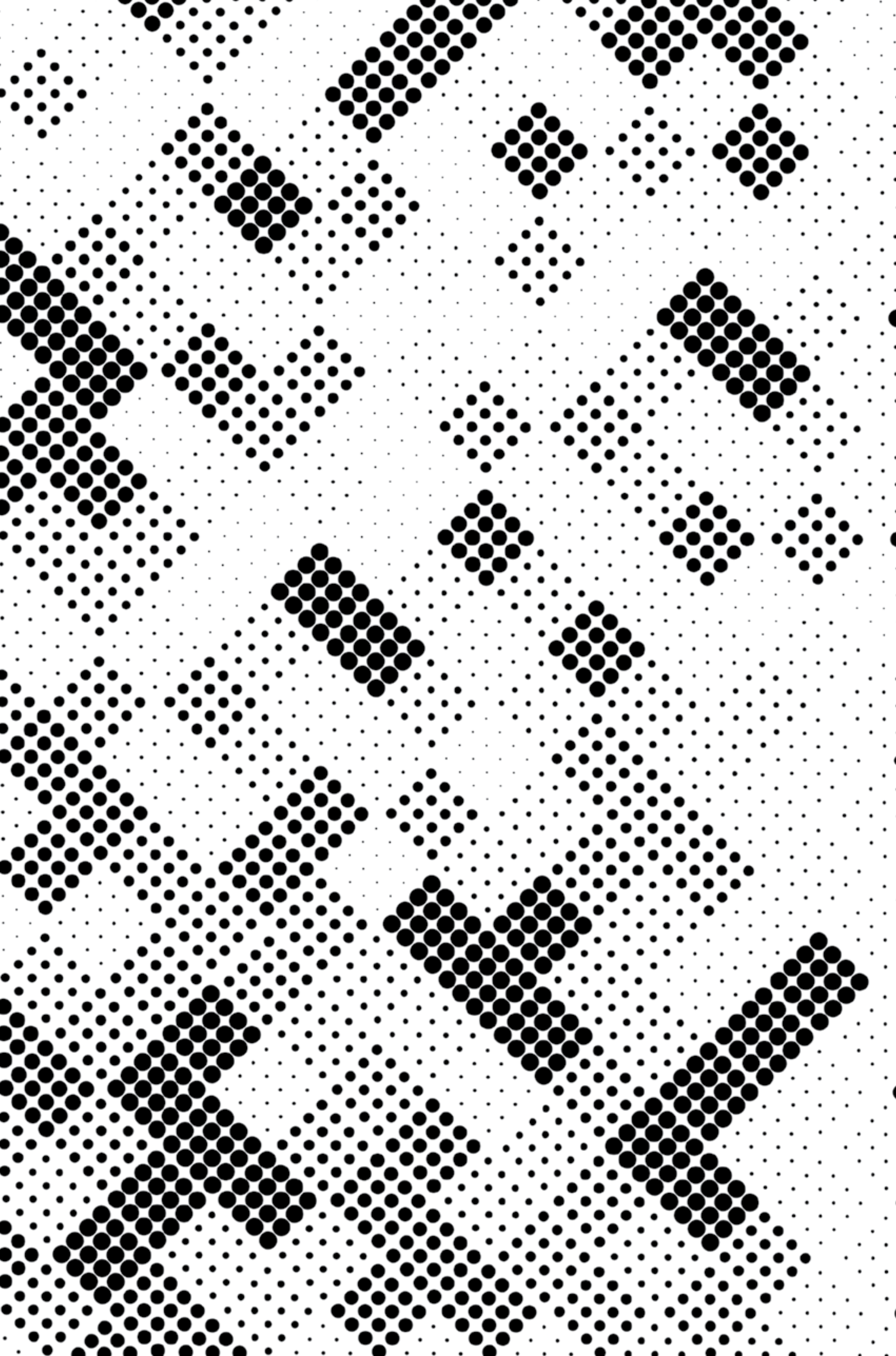
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين. أما بعد

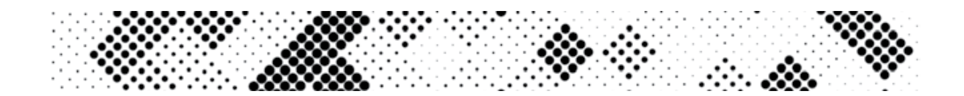
فلما كان للوالد فضيلة الشيخ الدكتور / محمد أمان بن علي جامي الجامي رحمه الله من مؤلفات نافعة بحمد الله في نشر العقيدة الصحيحة والعلوم الشرعية ورغبة منا في نشر هذه العلوم رجاء أن يصله منه رحمه الله (إذا مات الرجل انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية أو علم ينتفع به) رواه مسلم.

نسأل الله أن يتقبله منه وأن يعلي منزلته وأن يجمعنا به في الفردوس الأعلى. فقد أذنا لفضيلة الشيخ الدكتور / محمد بن سرار اليامي عضو هيئة التدريس بجامعة نجران في خدمة كتب الوالد رحمه الله تحقيقاً ونشراً أو طباعة. نسأل الله تبارك وتعالى له التوفيق والبركة وأن يجزيه خير الجزاء وأن يتقبل منه وصلى الله وسلم على رسوله وآله وصحبه أجمعين.

وكيل الورثة

يوسف بن محمد أمان الجامي





## تمهيد

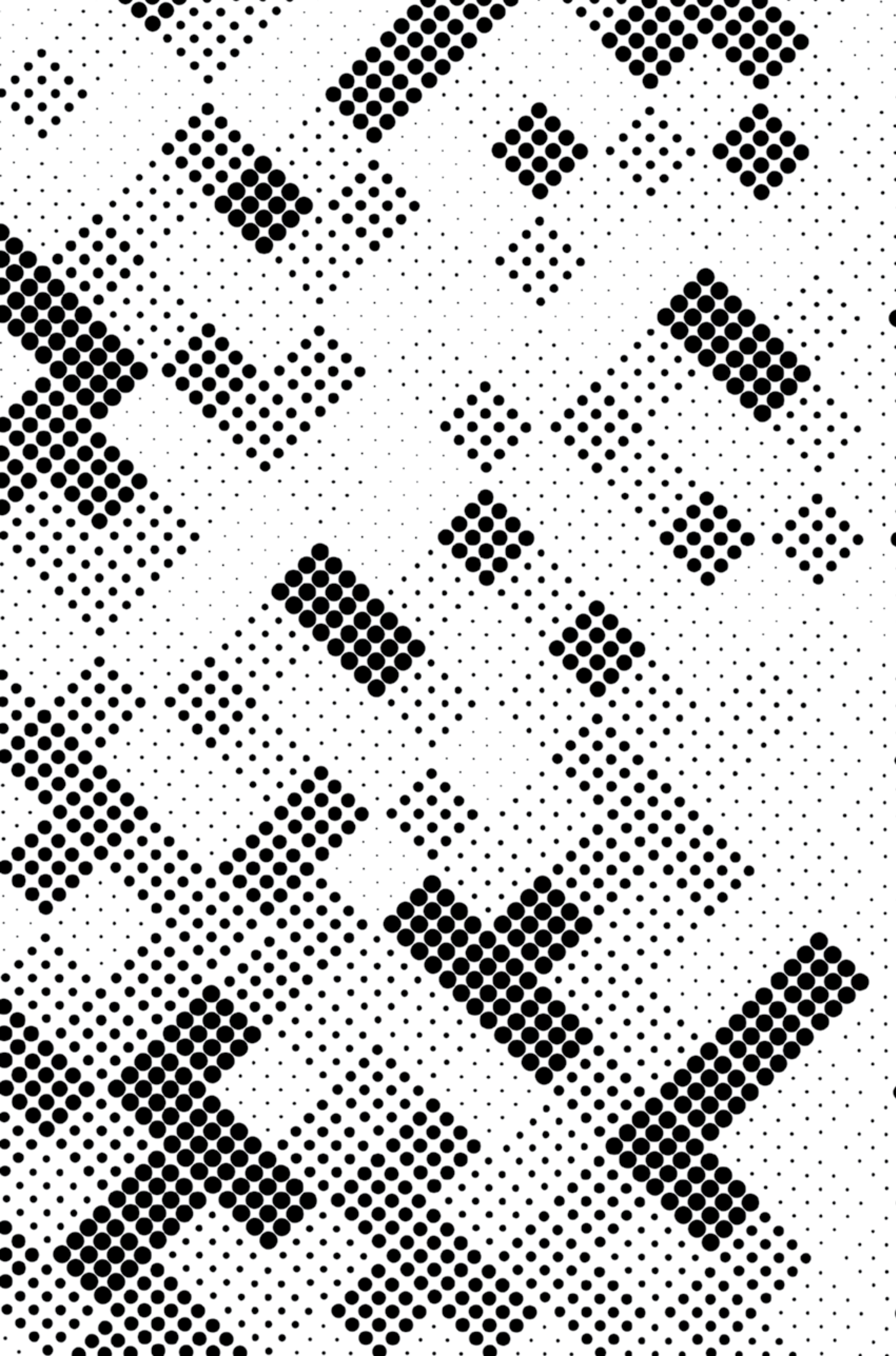
جـرت عـادة المصنفيـن مـن المتأخريـن أن يدوِّنـوا مقدمـة عـن علم وفضلـه وثمراتـه فـي صـدر مصنفاتهـم؛ لفوائـد، منها:

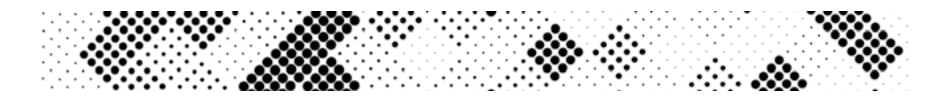
- أن يحصِّـل طالـب العلـم بصيـرة وتصـورًا إجماليًـا للعلـم قبـل أن يدخـل إلـى تفاصيلـه.
- أن يتحقق من فائدة العلم ونفعه.

اسـتقر عمـل المصنفيـن علـى ذكـر مبـادئ عشـرة لـكل علـم وفـن، تمثِّـل مدخـلًا تعريفيًـا لطالـب كل علـم، وجمـع بعضهـم هـذه المبـادئ العشـرة فـي قولـه:

مبـــادئُ أيِّ علـــمٍ كانَ حدٌّ      وموضـــوعٌ وغاية مســـتمدٌّ

وفضلٌ واضعٌ واســـمٌ وحكمُ      مسائلٌ نســـبةٌ عشـــر تُعدُّ





# المبادئ العشرية لعلم التوحيد

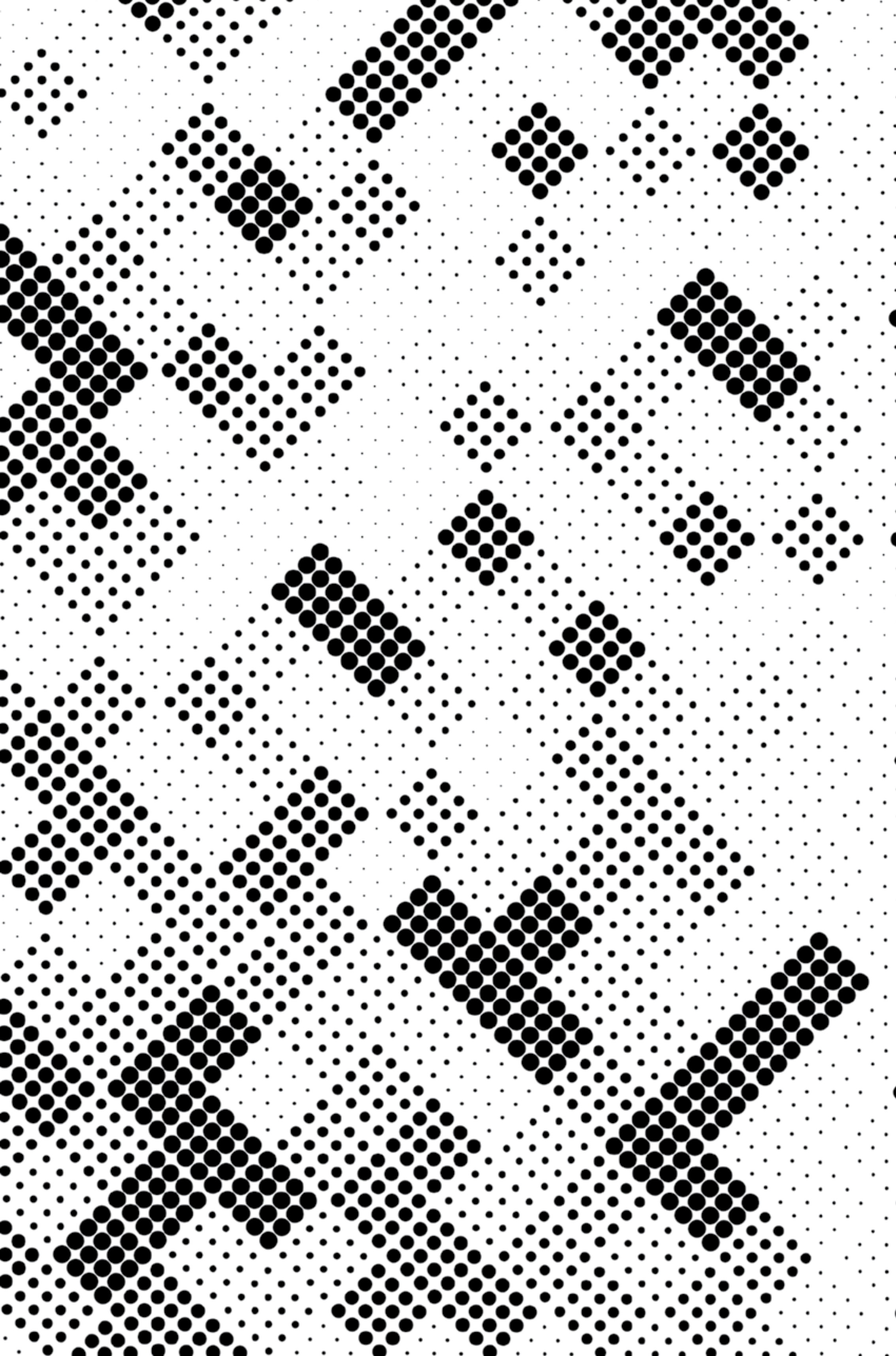
## حد علم التوحيد

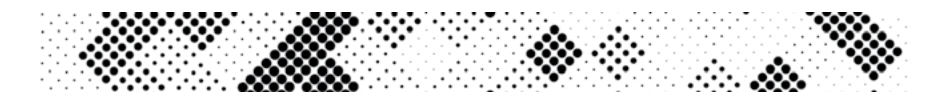
وهـو الوصـف المحيـط بمعنـاه المميّز لـه عن غيـره[١]. أو هـو اللفظ المفسِّـر لمعنـاه على وجه يجمـع ويمنع[٢]. ويسـمَّى عند بعضهـم بـ«القول الشـارح»، أو «التعريف».

**علم التوحيد هو:**

العلـم الـذي يبحـث فـي اللـه ومـا يجـب له، ومـا يجـوز ومـا يمتنع، وهـذا يشـمل الأنـواع الثلاثة مـن التوحيد: الربوبيـة، والألوهية، والأسـماء والصفات.

(١) مختصر التحرير (١/ ٨٩).
(٢) المستصفى (ص: ١٨)، روضة الناظر (١/ ٦٦)، شرح تنقيح الفصول (ص: ٤).





## أسماء علم التوحيد

**علـم التوحيـد**: أطلـق اسـم التوحيـد علـى هـذا العلـم لأن مبحـث وحدانيـة اللـه تعالى فـي ذاته وصفاتـه وأفعاله هـو أهم مباحث هـذا العلم، فهـو من بـاب تسـمية الكل بأشـرف أجزائـه. ومن أمثلتـه: «كتـاب التوحيد وإثبـات صفـات الـرب» للإمـام أبي بكـر ابـن خزيمة.

**العقيـدة**: والعقيـدة هـي: الإيمـان الـذي لا يحتمـل النقيـض[1]. وقد جـرى السـلف علـى تسـمية كتبهم فـي التوحيـد والإيمـان بكتـب العقيدة. ومـن أمثلـة الكتـب المصنفـة باسـم العقيـدة: «عقيـدة السـلف أصحـاب الحديـث» للشـيخ أبـو عثمـان الصابونـي رحمـه الله.

**الإيمـان**: الإيمـان يطلـق علـى الاعتقـاد القلبـي، والإقـرار اللفظـي، والعمـل الحسـي، امتثـالًا للأوامـر، واجتنابًـا للمناهـي. ومـن الكتـب المصنفـة باسـم الإيمـان: «كتـاب الإيمـان» لابـن أبـي شـيبة.

**السـنة**: عرفـت كتـب الاعتقـاد باسـم كتـب السـنة، وسـاد ذلـك فـي القـرن الثالـث الهجـري، فـي عصـر الإمـام أحمد رحمـه الله، حيـث أظهر أهـل البـدع بدعهـم وجاهـروا بهـا تصنيفًا ومناظـرة، فألَّـف أهل السـنة في الـرد عليهـم كتبًـا أسـموها كتـب السـنة؛ وذلـك لأنهـم لـم يكن لهم اسـم يتسـمون بـه خصوصًـا بخـلاف أهل الابتـداع. ومن تلـك الكتب: «السـنة» للإمـام أحمـد رحمـه الله.

---

(١) المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية للبريكان (ص: ١٣).

**أصول الدين**: وتشـمل أركان الإسـلام من الأعمـال الظاهرة، وأركان الإيمـان مـن الاعتقـادات الباطنـة، ثـم غلـب علـى العلمـاء المصنفيـن في الاعتقـاد اسـتعمال هـذا الاصطـلاح فـي قضايـا التوحيـد والعقيـدة. ومـن أمثلـة مـا ألـف: «الإبانـة عـن أصـول الديانة» لأبي الحسـن الأشـعري.

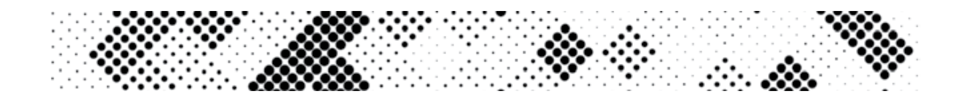
**الشـريعة**: أطلقـت الشـريعة علـى: «العقائد التـي يعتقدها أهل السـنة مـن الإيمـان، مثـل اعتقادهـم أن الإيمان قـول وعمـل، وأن اللـه موصوف بمـا وصـف به نفسـه ووصفه به رسـوله، وأن القـرآن كلام اللـه غير مخلوق ... إلـخ»[1]. ومـن الكتـب المؤلفة في الاعتقـاد: «الشـريعة» للآجري.

**الفقـه الأكبـر**: يقول الحنفي: «سـمي بالفقـه الأكبر؛ لأنه أكبر بالنسـبة للأحـكام العمليـة الفرعيـة التـي تسـمى الفقه الأصغـر؛ ولأن شـرف العلم وعظمتـه بحسـب المعلـوم، ولا معلـوم أكبـر مـن ذات الله تعالـى وصفاته الـذي يبحـث فيه هـذا العلـم؛ لذلك سـمي الفقه الأكبـر»[2].

**التطـور التاريخـي لتدويـن علـم التوحيـد**: مصطلحي الإيمـان والفقه الأكبـر ظهرا فـي القرن الثانـي وبرزا، واسـتمر مصطلح الإيمان فـي الذيوع خـلال القـرن الثالـث حيث بـرز مصطلح السـنة، ثم ظهـر في القـرن الرابع أربعـة مصطلحـات: التوحيـد، الشـريعة، أصول الديـن، العقيـدة، وإن كان مصطلـح العقيـدة قد ظهـر أواخر القـرن الرابـع وأوائل الخامـس الهجري، وتتابـع بعـد ذلك المصنفـون على اسـتعمال هـذا المصطلح.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٠٦).
(٢) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (١/ ٨).



## موضوع علم التوحيد

موضوع علم التوحيد يدور على محاور ثلاثة، وهي:

١. **الإلهيات**: من حيثيات ثلاث، هي:

– ما يتصف به عز وجل من العلم والحياة والقدرة والصفات وسائر صفاته وكمالاته تعالى.

– ما يتنزه عنه من الظلم والنقص والعجز والمثالب، وسائر ما لا يليق بجلاله وكماله.

– حقه على عباده، وهو أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئًا، وأن يطيعوه فلا يعصوه أبدًا.

٢. **النبوات**: من الحيثيات التالية:

– ما يلزمهم ويجب عليهم من صدق وأمانة وبلاغ ونصح لأممهم ونحو ذلك.

– ما يجوز في حقهم من أكل ونكاح ونحو ذلك مما يعرض للبشر.

– ما يستحيل في حقهم من الكذب والخيانة والكفر والكبائر والموبقات.

– ما يجب لهم على أتباعهم من الحب والطاعة والاتباع والتعظيم.

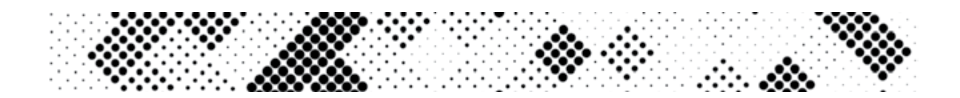
**٣. السمعيات أو الغيبيات:**

وهــي مــا يتوقـف الإيمان بــه علــى مجـرد ورود الســمع أو الوحي به، وليـس للعقـل فــي إثباتهــا أو نفيهــا أو مدخــل. والبحــث في الســمعيات أو مســائل الغيــب يكون مــن حيــث اعتقادهــا، وهو يقــوم على دعامتيــن هما:

١. الإقرار بها مع التصديق، ويقابله الجحود والإنكار لها.

٢. الإمــرار لهــا مــع إثبــات معناهــا، ويقابلــه الخــوض فــي الكنــه والحقيقــة.

**وضابـط الســمعيات**: أن العقــل لا يمنعهــا أو يحيلهــا، ولا يقــدر على ذلــك، ولا يقــدر أن يوجبهــا، ولا يحــار فــي ذلك.



## حكم علم التوحيد

علم التوحيد منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.

حكم الشارع في تعلم علم التوحيد أنه فرض عين على كل مكلف، من ذكر وأنثى، وذلك بالأدلة الإجمالية، وأما بالأدلة التفصيلية ففرض على الكفاية.

**ويشترط للتكليف بالتوحيد أربعة شروط، وهي:**

**العقل**: وهو الوصف الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان.

**والبلوغ**: فمتى بلغ الصغير خمس عشرة سنة عدَّ بالغًا، ما لم يبلغ بأمارة أخرى قبل ذلك.

**وسلامة حاستي السمع أو البصر**: وأهم الحواس للتكليف حاسة السمع، فإذا أصيبت حاسة السمع دون البصر أمكن العلم بالإشارة الكتابة، وإن فقد البصر حصل العلم بالسمع، وإن فقدتا معًا فقد قام العذر المانع من بلوغ الحجة، ولم تنقطع المعذرة في الآخرة.

**وبلوغ الدعوة وقيام الحجة**: فلا حساب ولا عذاب إلا بعد قيام الحجة الرسالية بإرسال الرسل وإنزال الكتب وقطع العذر على أكمل وجه، **والناس بحسب بلوغ الدعوة وقيام الحجة ثلاثة أقسام:**

**القسم الأول: أهل القبلة:**

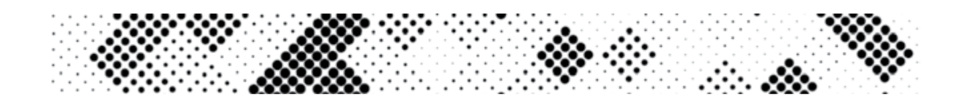
وهــم الذيــن بلغتهم دعوة الرســول فآمنوا وشــهدوا بالتوحيـد، وماتوا علـى ذلـك، وأهـل القبلـة فيمـا جهلـوه مـن أحـكام التوحيـد ومقتضياتـه معذورون.

**القسم الثاني: أهل الفترة:**

وهــم كل مــن لم تبلغهم دعوة الرســل، ولــم تقم عليهــم الحجة، وهم ممتحنـون فـي الآخرة بنـار يؤمـرون باقتحامها، فمـن أطاع في الآخـرة فإنه مـن أهـل الطاعـة فـي الدنيـا لـو جـاءت الرسـالة، ومـن عصى فـي الآخرة فإنــه من أهــل الكفر فــي الدنيا لــو جاءته الرســالة.

**القسم الثالث: من لا يؤمن بالله عز وجل:**

وهم كل من سمع بدين الله ونبيه، فلم يؤمن ظاهرًا وباطنًا.



## فضل علم التوحيد

يقصد بفضل علم التوحيد مزيته وقدره الزائد على غيره من العلوم، **وذلك يظهر بالنظر إلى جهات ثلاث:**

**أولًا: من جهة موضوعه:**

التوحيد يتعلق بأشرف ذات، وأكمل موصوف، بالله الحي القيوم؛ لذا كان علم التوحيد أشرف العلوم موضوعًا ومعلومًا، وتحقيق التوحيد هو أشرف الأعمال مطلقًا، وهو دعوة كل الرسل. فأهم ما على العبد معرفته هو التوحيد.

**ثانيًا فضله من جهة معلومه:**

إن معلوم علم التوحيد هو مراد الله الشرعي، ومراد الله يجمع أمورًا ثلاثة، فهو يجمع أن الله تعالى أراده وأحبه فأمر به، ويترتب عليه أمور ثلاثة، يترتب على كونه أمر به أن يثيب فاعله، ويعاقب تاركه، وأن ينهى عن مخالفته؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فالأمر بالتوحيد نهي عن الشرك ولابد.

**ثالثًا: فضله من جهة الحاجة إليه:**

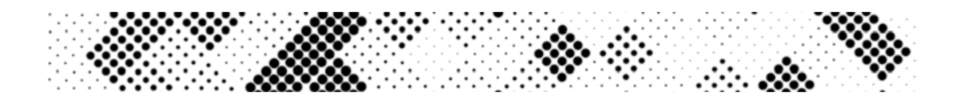
فضل علم التوحيد باعتبار الحاجة إليه يظهر بالنظر إلى:

- أن الله عز وجل طلبه، وأمر به كل مكلَّف، وأثنى على أهله.

- أن عقيـدة التوحيـد هـي الحـق الـذي أرسـلت مـن أجلـه جميـع الرسـل.

- أن اللـه جعـل الإيمان شـرطًا لقبـول العمـل الصالح وانتفـاع العبد به فـي الدنيـا والآخرة.

- أن سـعادة البشـرية فـي الدنيـا متوقفة علـى علم التوحيـد، فلا راحة ولا طمأنينـة ولا سـعادة إلا بـأن يعـرف العبد ربه بأسـمائه وصفاتـه وأفعاله من جهـة صحيحـة صادقة وهـي الوحي.



## استمداد علم التوحيد

علم التوحيد يستمد من الكتاب والسنة، و**أنواع أدلة علم التوحيد:**

**أولًا: صحيح المنقول:**

يشمل الكتاب العزيز والسنة الصحيحة مطلقًا.

**ثانيًا: الإجماع المتلقى بالقبول:**

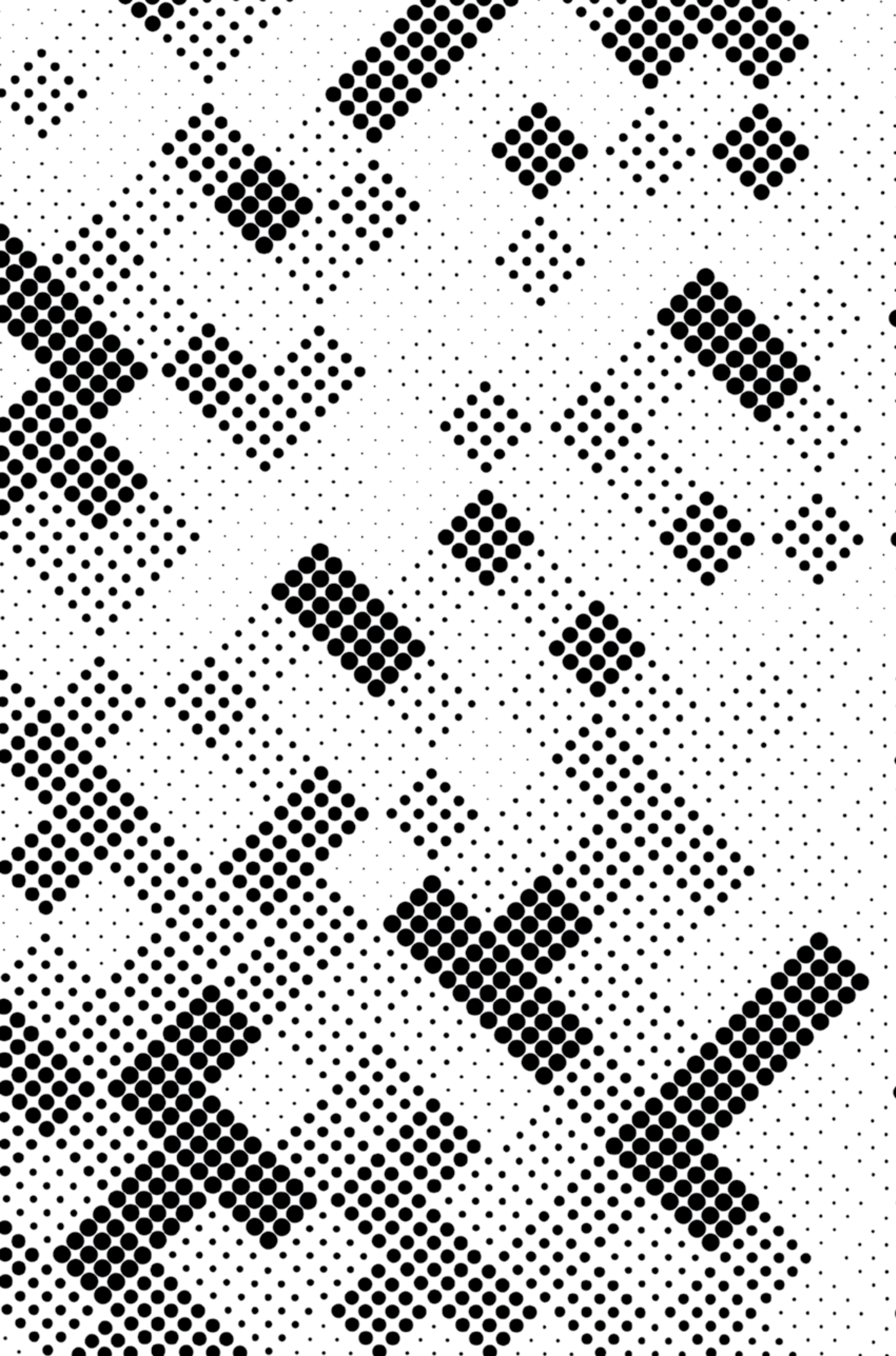
الإجماع مصدر من مصادر الأدلة الاعتقادية؛ وأكثر مسائل الاعتقاد محل إجماع بين الصحابة والسلف الصالح، ولا تجتمع الأمة على ضلالة وباطل.

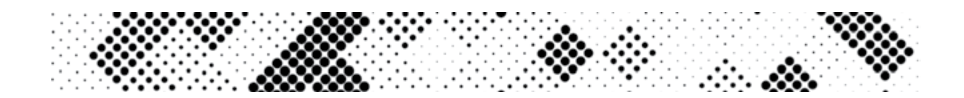
**ثالثًا: صريح المعقول:**

العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح؛ لأن مصدرهما واحد وهو الله.

**رابعًا: الفطرة السوية:**

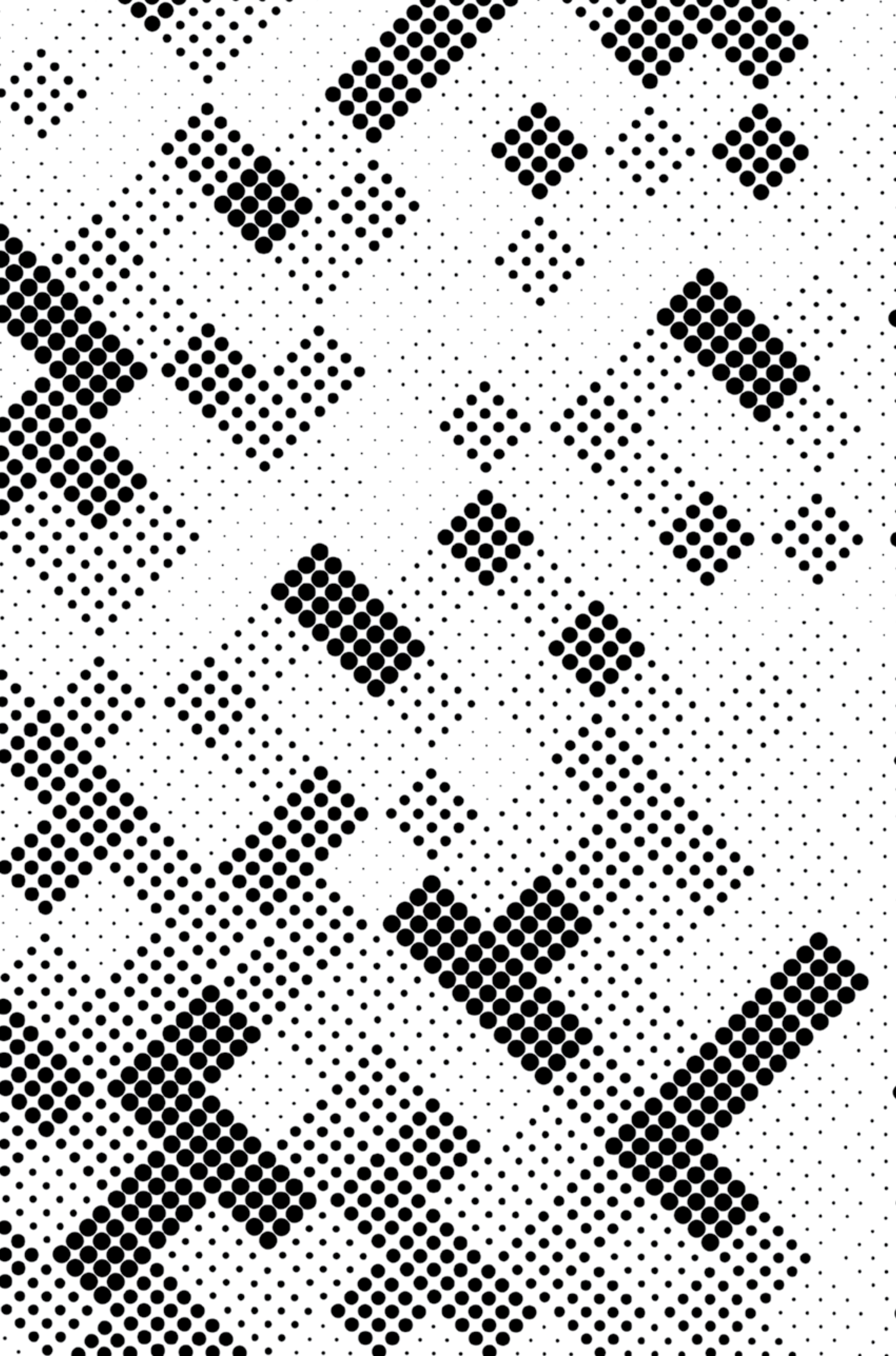
الفطرة السوية تهدي العبد إلى أصول التوحيد، وجمهرة أهل العلم على فطرية الإيمان.

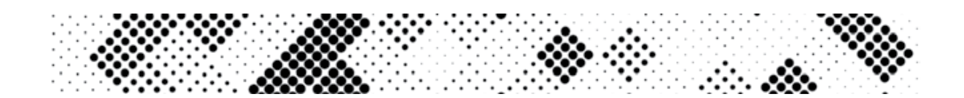




## نسبة علم التوحيد

علم التوحيد نسـبته إلى سـائر العلوم الشـرعية هي التخالف والتباين، فهـو فـن مسـتقل بذاتـه، قائـم بنفسـه، لـه أصولـه ومصـادره، ومناهجـه ومسـائله، ولا يغنـي عنـه غيـره، وإن كان كالأسـاس لعلـوم الإسـلام، وهو منهـا بمنزلـة الـرأس مـن الجسـد؛ ولذا مـال بعض العلمـاء إلـى التعبير عن نسـبته إلـى غيـره مـن العلـوم بأنـه أصلهـا وما سـواه فـرع عنـه، باعتبـار أن علـوم الإسـلام تقـوم أولًا علـى معرفـة اللـه تعالـى وتوحيـده، والتصديـق ببعثـة نبينـا وأمـور الغيب، وهـذا موضـوع علـم التوحيد.





## واضع علم التوحيد

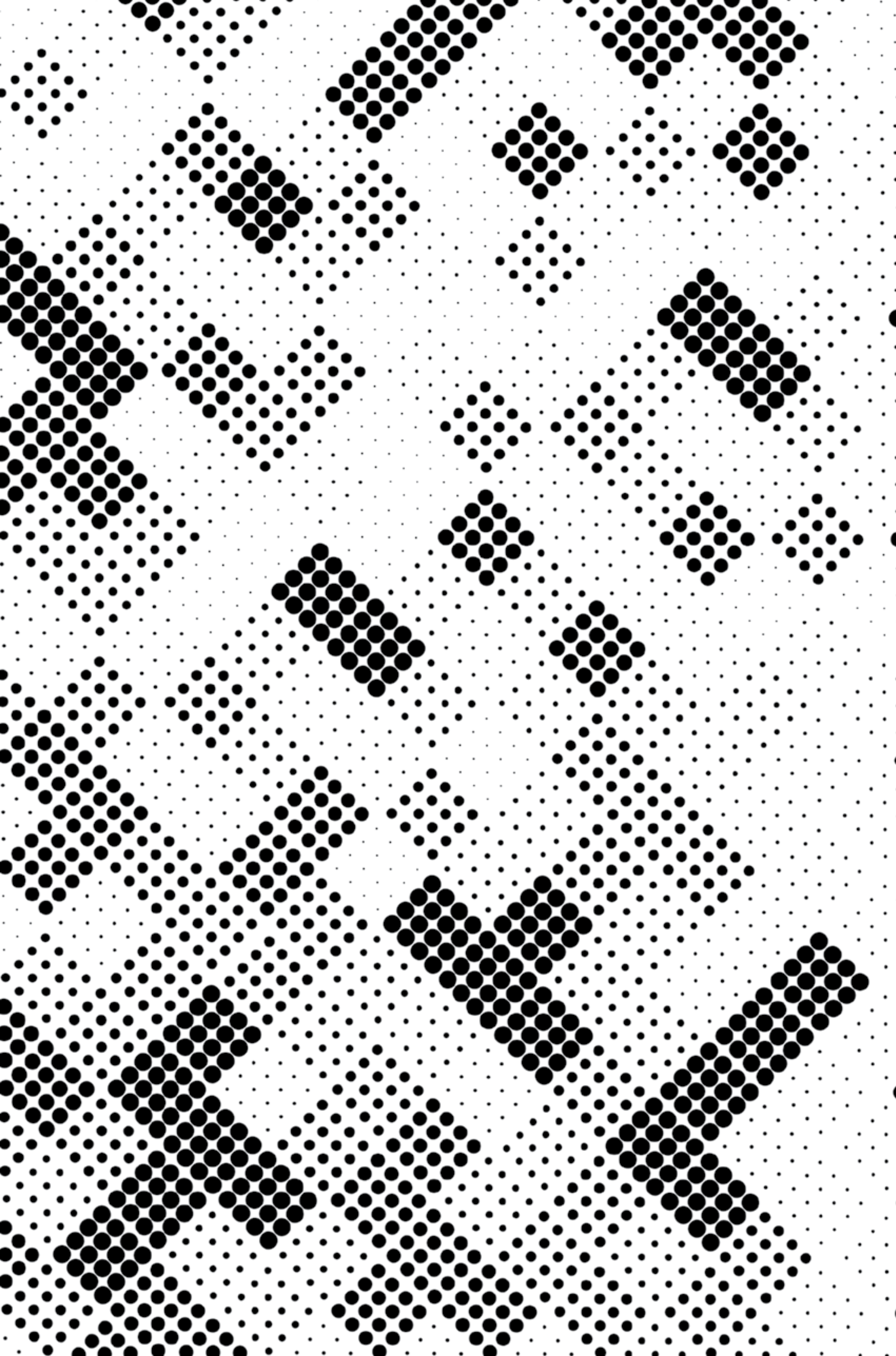
علم التوحيد مر في وضعه تدوينه بطورين:

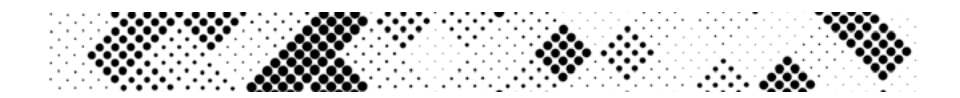
**أولهما: طور الرواية، ما قبل التدوين:**

لم يكن الصحابة بحاجة إلى التدوين، فقد كانوا يتلقون عن رسول الله الوحيين، فكانت مسائل الاعتقاد محفوظة في أذهانهم، ولم يقع بينهم اختلاف في شأن التوحيد.

**والثاني: طور التدوين والاستقرار:**

بدأ هذا في حياة التابعين، ابتدأ الكتابة والتدوين الإمام الزهري رحمه الله، ثم شاع ذلك في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، كما فعل الإمام مالك رحمه الله في الموطأ، حيث رتبت الأحاديث على أبواب تتعلق بـ«باب الإيمان»، وباب التوحيد، وكان هذا التبويب للأحاديث هو النواة الأولى في استقلال كل باب فيما بعد بالتصنيف والبحث، وكان أول متن عرفناه في العقيدة هو كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة رحمه الله، ثم تتابع التأليف بعد أبي حنيفة في علم التوحيد بأسماء مختلفة لهذا العلم.





## غاية علم التوحيد

الغايـة والثمـرة والفائـدة والغرض بمعنـى واحد، وتعود ثمرة دراسـة علـم التوحيـد إلى أمرين أساسـيين:

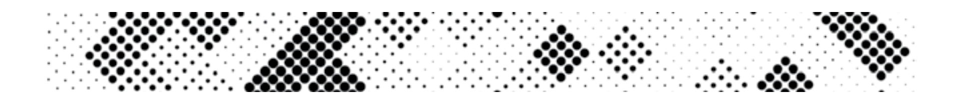
**الأول: بالنسبة للمكلف:**

مـن ثمـرات علـم التوحيـد فـي حياتـه الدنيـا: قيـام المدنيـة وازدهار الحضـارة، وانتظام أمـر الحياة، وطيب العيـش، ومظاهر الحيـاة الطيبة التي خـص اللـه بهـا عبـاده المؤمنيـن في الدنيـا كثيـرة منهـا: ولاية اللـه ومحبته للمؤمنيـن ومحبـة الخلـق لهـم، ومدافعتـه عـن المؤمنيـن ونصرهـم علـى أعدائهـم، وحصـول نـور البصيرة التي تفـرق بين الحـق والباطل، وحصول العـزة وتمـام الكرامـة والشـرف، ومعرفـة اللـه معرفـة يقينيـة، وانشـراح الصـدر وطمأنينـة القلب، وحصـول بـرد اليقين واسـتقرار الفكـر، والنجاة مـن الانحراف عـن الصـراط المسـتقيم، وتحقيـق الإخـلاص، والاجتماع والوحـدة والاختلاف.

ومـن ثمـرات علـم التوحيـد فـي حياتـه الآخـرة: امتنـاع الخلـود في النـار لمـن ظلم نفسـه مـن الموحِّديـن، ودخـول الجنة ابتـداء لمـن اقتصد مـن أصحـاب اليميـن، والفـوز بالدرجـات العلـى لمـن سـبق بالخيـرات، مـع رضـوان اللـه عـز وجـل ورؤيـة وجهـه الكريم فـي الجنـات، هـو غاية المطالـب، ونهايـة الرغائـب لجميـع المؤمنيـن.

**ثانيًا: ثمرته بالنسبة للعلم به وعلوم الإسلام:**

وثمـرة علـم التوحيد باعتبار العلم نفســه هــي حفظ هــذا العلم بحفظ قواعـده، وأصولـه ومسـائله، وفـي هـذا حفـظ للديـن نفسـه؛ لأن العلـم الشـرعي ديـن يـدان اللـه عز وجـل به.



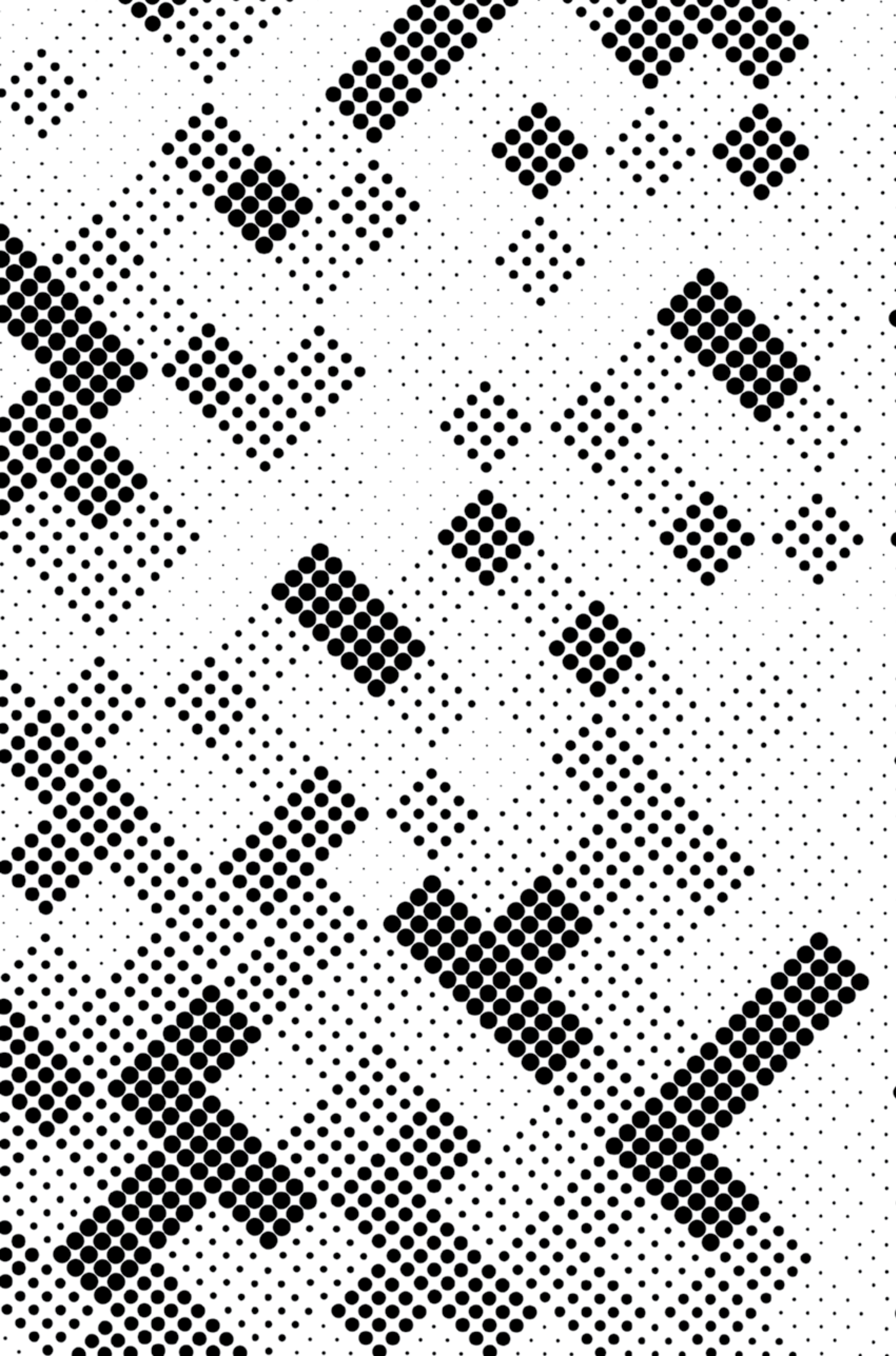
## مسائل علم التوحيد

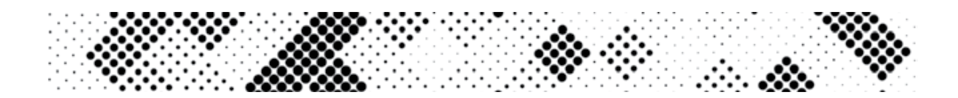
مسـائل علـم التوحيد هي معرفـة أحـكام القضايا الاعتقاديـة المتعلقة بذلـك كلـه مـن الوجـوب والجـواز والاسـتحالة، ومـا توقفـت عليـه تلك الأحكام لاسـتفادتها.

فمسـائل علـم التوحيـد تتضمـن معرفـة الأحـكام الشـرعية العقديـة كأحـكام الألوهيـة، وعصمـة الرسـل، وقضايـا اليـوم الآخـر ونحـو ذلـك.

**وهذا المدخل تشرف بكتابته تلميذه المعتني**

**محمد بن سرار اليامي**





# الروض الرائض في ترجمة الشيخ عايض

## اسمه ونسبه:

عايض بن فدغوش بن جزاء بن حسن بن حمدان بن مقبول بن مقيبل بن رده البديوي بن دمشق بن ملفي بن مفلح بن مسفر بن عامر بن مفلح بن عياش بن شدَّاد بن حارث بن شهوان بن ضيغم بن قحطان[١].

## مولده ونشأته وتعليمه:

ولد في ضواحي مدينة الرياض في شهر ربيع الأول عام ١٣٧٩هـ، تلقى تعليمه الأول عن طريق أبيه -رحمه الله- من القراءة والكتابة على طريقة القاعدة البغدادية وحفظ شيئاً من القُرآن في صغره ثم درس الابتدائية في مدرسة زيد بن حارثة في منفوحة، وتخرج منها عام ٩٢-١٣٩٣هـ ثم أكمل دراسته في معهد الرياض العملي تخرج من المتوسطة سنة ٩٥-١٣٩٦هـ ثم أخذ الشهادة الثانوية من معهد الرياض العلمي بالملز عام ١٤٠٠هـ بتقدير ممتاز وكان ترتيبه الثاني على الرياض، ثم الشهادة العالمية من كلية الشريعة عام ١٤٠٦هـ ثم حصل على الماجستير عام ١٤١٣هـ بإشراف فضيلة الشيخ: صالح بن

---

(١) هذا ما حرره -رحمه الله- في كتابه (قبيلة بني الحارث قديمًا وحديثًا).

عبـد الرحمـن الأطـرم عضـو هيئة كبـار العلمـاء رحمه اللـه، ثـم الدكتوراه عـام ١٤٢٣هـ بإشـراف فضيلة الشـيخ الدكتـور: عبد الله بن موسـى العمار حفظه اللـه[١].

## صفاته الخُلقية:

متوسـط القامـة معتـدل فـي وزنـه إلـى قلـة الـوزن أقـرب، متوسـط اللحيـة، جميـل الوجه أبيض البشـرة مشـربة بحمـرة، له نبرة صـوت متفردة رحمـه الله.

## شيوخه:

كان يحضـر دروس مفتي الديار السـعودية الشـيخ عبـد العزيز بن عبد اللـه بـن باز رحمـه الله في الجامـع الكبير بالريـاض، وكان لديـه العديد من التسـجيل الذي كان يسـجله بنفسـه رحمه الله للشـيخ ابن بـاز رحمه الله.

كمـا تتلمـذ فـي أثنـاء دراسـته بكليـة الشـريعة لمـا كانت فـي موقعها القديـم علـى نخبـة من أهـل العلم منهـم مفتي المملكة الشـيخ عبـد العزيز بـن عبـد الله آل الشـيخ حفظـه اللـه وغيرهم ممن تزخـم بهم كلية الشـريعة آن ذاك.

كمـا أخـذ العلـم مـن الشـيخ عبـد الله بـن عبـد الرحمـن بـن جبرين رحمـه اللـه[٢]، والشـيخ عبـد الله بـن عقيل رحمـه الله كمـا أفاد بـه فضيلة الشـيخ الأسـتاذ الدكتـور إبراهيم بن سـعيد الدوسـري فـي مقال لـه بعنوان

(١) نقلًا عن المقابلة التي أجريت له في موقع الشدادين الالكتروني.
(٢) نقلًا عن الدكتور زيد الغنام عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(خواطـر فـي وفاة سـماحة العقيـل)[1] وفي معـرض كلامه ذكر عن الشـيخ العقيـل رحمـه اللـه قـال: (أنه خـلال عـام ١٤٠٦هــ خصص يـوم الجمعة مـن كل أسـبوع لتدريس كتاب المختارات الجلية للشـيخ السـعدي، ويلقي فـي أحـد بيـوت طلابـه بعـد العشـاء حتى أتـم شـرحه ولـله الحمد مسـألة مسـألة، بالشـرح والتفصيـل والتحليـل والترجيـح، وكان مـن أبـرز أولئـك الطلبـة الشـيخ: عايـض بـن فدغـوش الحارثـي، الذي فـاز بنصيب الأسـد مـن دعـوة الشـيخ فـي منزله عـدة مـرات رحمهما اللـه جميعـاً) ا.هـ.

وكان لـه صلـة بالشـيخ صالـح بـن عبـد الرحمن الأطـرم رحمـه الله تعالـى وقـد أشـرف على رسـالته فـي الماجسـتير.

وإن جـاز لنـا القـول بأن من شـيوخه شـيخ الإسـلام أبي العبـاس ابن تيميـة رحمـه اللـه تعالـى حيث كان لـه عنايـة بكتبـه وتتبعها وهذا مـا جعله يحـرر في رسـالته الدكتوراه ترجيحات شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمه الله حيـث كان لـه رحمـه اللـه الفضل علـى بقية المشـايخ فـي تتبـع ترجيحات شـيخ الإسـلام في رسـائل الدكتوراه.

**مناقبه:**

من أشـد النـاس عنايـة بمنهج السـلف رحمهم اللـه تعليما وسـلوكاً، يأمـر كل مـن أراد العلـم أن يأخـذه من أهلـه العلمـاء الموثقيـن وخصوصاً كبـار علماء هـذا البلـد المبارك.

---

(١) نشر في شبكة الألوكة بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٤٣٢هـ.

كان شـجاعاً فـي الحـق بدليلـه مناصحـاً وداعياً إلى سـبيل الله وسـنة رسـوله ﷺ بالتـي هـي أحسـن، فقـد كانت لـه مراسـلات ولقـاءات مع بعـض المسـؤولين لبيـان الأخطـاء التي لديهم متأسـياً بهـدي النبي ﷺ فـي ذلك.

كان رحمه الله مختصاً بالفقه الشرعي مهتماً بتحقيق التوحيد.

وهـو من أشـد الناس غيرة علـى جنـاب التوحيد، منبهـاً على كل مـا يـروج من بدع وتشـدد وخـروج عن منهج السـلف رحمهـم الله.

مـن مقولاتـه الشـهيرة: (إنـي لأرجـو أن يكـون حبي لـولاة أمرنا مـن آل سـعود -وفقهـم اللـه- مما أديـن الله بـه، فهم يحكمون بشـرع اللـه على هدي رسـول اللـه ﷺ)[١].

فهـو رحمه اللـه منافحاً عـن المملكـة العربية السـعودية التي هي بلـد التوحيـد وتحكم شـرع الله فكانـت له الوقفـات العظيمـة في بيان فضـل هذه الدولـة والدفـاع عنها فكان لـه رحمه الله في حـرب تحرير الكويـت موقف الشـيخ الناصح الشـجاع في بيان الحـق وعظيم الأجر مـن الله.

كمـا كان رحمـه اللـه محـذرًا مـن كل مـا يخالـف منهج السـلف مـن الجماعـات والأحـزاب التـي خالفـت منهجهـم كان رحمـه اللـه مقضـي الشـفاعة مرضـي السـيرة مقرباً فـي مجالس ولاة الأمـر وفقهم اللـه ورحـم اللـه من مـات منهـم، وجعـل قربـه منهـم قضـاء لحوائج

(١) نقلًا عن العم الأستاذ: حمد بن فدغوش أخ الشيخ وفقه الله ومتعه متاع الصالحين.

النـاس وتيسـير أمورهـم وشـفاعته لهم.

يسـتحضر الدليـل فـي دروسـه وكلماته مـن القُـرآن والسُّـنَّة، من سـمع كلامـه انشـرحت نفسـه لمـا يفيـض فيـه مـن ذكـره لنصـوص الوحييـن.

وهنا يحسـن نقـل كلام ما قالـه الدكتور محمد بن عطيـة الحارثي عضـو هيئـة التدريـس بجامعة الملك سـعود حيـث قال: (تميز الشـيخ ابـن فدغوش بتبحره فـي مجال الفقـه والتوحيد والمذاهـب والتيارات الفكرية)[1].

كمـا كان محافظـاً علـى السُّـنَّة وفعلهـا ومحبـاً لأهلهـا صاحـب قيـام لليـل وتهجـد رحمـه الله.

كان رحمـه الله سـمح الخاطر طلـق الجبين لا تكاد تنظـر إليه إلا مبتسـماً مـع مـا جبله اللـه تعالـى عليه مـن لين الجانب، سـاعياً بنفسـه فـي قضـاء حوائـج الناس بـكل ما يسـتطيع، يقدم شـفاعته لك مـن آتاه طالبـاً لهـا ومـن مقولاته فـي هـذا رحمه اللـه: (أنا قـدم الشـفاعة لكل أحـد جـاء يطلبهـا منـي)[2]، حريصـاً رحمـه اللـه علـى الإصـلاح بين النـاس، وعلـى إكـرام الضيف. حريصـاً علـى إجابة كل مـن دعاه على رغـم مشـاغله وأعماله رحمـه الله.

---

(١) مقال (الراحلون بهدوء) بجريدة الرياض العدد ١٤٥٢٩.

(٢) وهذا يؤكده كل من عرف الشيخ -رحمه الله- أو كتب عنه -رحمه الله-. ينظر مقال الشيخ عبد الله بن عبد العزيز آل الشيخ (مات المحب والزميل الناصح) بجريدة الرياض العدد ١٤٥٢٩.

**حياته العلمية:**

عمـل فـي وزارة الإعلام إبـان كان وزيرها محمد يمانـي ثم انتقل إلـى أمانـة منطقة الريـاض ثم للعمل فـي هيئة الأمر بالمعـروف والنهي عـن المنكـر فترة من الزمن محتسـباً، كما اشـتغل بعدهـا بأعمال حرة.

ثـم عُين مرشـداً بـوزارة الدفاع والطيـران وما زال بهـا حتى توفي علـى المرتبـة الثانية عشـر بمسـمى كبيـر المرشـدين الدينييـن ورئيس البحوث والدراسـات الشـرعية بالـوزارة، مشـاركاً في الفتيـا في الحج كل سـنة لأكثـر من عشـر سـنوات متوالية.

كمـا كان إمامـاً للعديـد مـن المسـاجد لأكثـر من عشـرين سـنة، يـؤم المصليـن ويلقـي الـدروس والمحاضـرات بهـا.

**أسماء بعض الطلاب الذين درسوا على يديه:**

الدكتور: صالح بن عبد الله العصيمي عضو هيئة كبار العلماء.

الدكتور: عبد الله بن حسن الهنيدي الشمراني.

الدكتور: مناور بن عوض الحربي رحمه الله.

الدكتور: خليفة بن مبارك السليس(١).

الشيخ: عبد الرحمن بن مصلح الشلوي.

الشيخ: محمد بن راشد الدبيان.

الشيخ: علي جيلان.

---

(١) وهو صاحب عنوان هذه الترجمة. وفقه الله وبارك له في عمره وعمله.

الشيخ: حامد بن سعد الحارثي.

الشيخ: أحمد بن جار الله الزهراني يحضر رسالة الدكتوراه.

الشيخ: إبراهيم بن مطلق الحارثي يحضر رسالة الدكتوراه.

الشيخ: عبد الرحمن الزهراني.

الشيخ: محمد شطي العنزي مدرس بمركز التدريب.

الشيخ: محمد بن سعيد الشهري.

الشيخ: إبراهيم الأسمري.

الشيخ: شافي القرني.

الشيخ: ماجد الطهماز.

الشيخ: مفرح الزهراني.

الشيخ: فهد بن ذيب القحطاني[١].

الدكتـور: محمـد بن سـرار اليامـي عضو هيئـة التدريـس بجامعة نجران.

**وغيرهم كثير ممن لم نقف عليه.**

---

(١) من اسم الشيخ: عبد الرحمن بن مصلح الشلوي إلى آخر الأسماء بعث بها الشيخ: حامد بن فهد الحارثي إمام وخطيب جامع نجمة المدائن وفقه الله ورحم والديه.

## كُتبه:

**ألف رحمه الله بعض الكتب والرسائل النافعة من ذلك:**

١ – أقسـام التوحيـد والموحدين طبـع أكثر من ثلاث طبعـات بمطابع وزارة الدفاع والطيران.

٢ – المسـائل الفقهيـة المنصوصـة عنـد الإمـام أحمـد فـي طبقـات الحنابلـة جمـع وإعـداد رسـالة ماجسـتير.

٣– اختيـارات شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمـه الله الفقهيـة من كتاب الطهـارة إلـى بـاب المسـح علـى الخفيـن رسـالة دكتـوراه وقـد طبـع مـع مجمو عة .

٤ – فتـاوى تهـم العسـكريين وغيرهـم طبـع فـي مطابـع وزارة الدفاع والطيـران عـدة طبعات.

٥ – شبهات الخوارج قديماً وحديثاً لم يكمله رحمه الله.

٦ – قبيلـة بنـي الحـارث قديمـاً وحديثـاً لم يكملـه رحمه اللـه، وبإذن الله سـوف يطبـع الجـزء الذي انتهـى منه.

٧– رسـالة بعنـوان تفسـير آيات الحـج طبعـت بمطابـع وزارة الدفاع والطيـران عـدة طبعات.

٨– رسـالة بعنـوان (آيـات وأحـكام مـع ملخـص لبعـض فتـاوى الصيـام) طبعـت بـوزارة الدفـاع والطيـران.

٩– رسـالة بعنـوان (أعمال الحـج ومخالفاتـه) طبعت بـوزارة الدفاع

والطيران(١).

١٠- لـه رحمـه اللـه العديـد مـن الرسـائل الفقهيـة والمقـالات التي نشـرت فـي مجلـة الجندي المسـلم.

كمـا لـه رحمـه اللـه بعـض التعليقـات علـى جـلِّ الكتـب التـي كان يشـرحها كمثـل كتـاب التوحيـد وكتـاب الـروض المربـع وكثيـر مـن كتب المذهـب الحنبلـي.

**وفاته:**

توفـي رحمـه اللـه ليـل الخميـس الموافـق الثانـي عشـر مـن شـهر ربيـع الأول للعـام التاسـع والعشـرين بعـد الأربعمائـة والألـف للهجـرة ١٢/ ٣/ ١٤٢٩هـــ فـي تمـام السـاعة الثانيـة والنصـف بعد منتصـف الليل بسـكتة قلبيـة عـن عمـر يناهـز الخمسـين تقريبـاً بعـد ما نطـق بالشـهادتين يكررهـا لأكثـر مـن مـرة، وصُلـيَّ عليـه عصـر الخميـس بجامـع الراجحي بحـي الربـوة وأمَّ المصليـن سـماحة مفتي عـام المملكـة العربية السـعودية الشـيخ: عبـد العزيـز بن عبـد الله آل الشـيخ حفظه اللـه في جنازة لم يشـهد بمثلهـا إلا قليـل- وبموتـه فقـدت الأمة عالمـاً مـن علمائها الذين سـخروا أوقاتِهـم وجُهدِهـم للعلـم وأهلـه وللناس أجمـع. فرحم الله الشـيخ رحمةً واسـعة وأفسـح لـه فـي قبـره وجعـل ما قـدم حجة لـه عنـد ربـه وأخلف له فـي عقبـه آمين.

وقـد كتب فـي وفاتـه العديـد مـن المقـالات والقصائد التـي تنم

(١) وقد طبعت مرة أخرى مع رسائل أخرى في الحج للمؤلف.

عـن عِظـم المصـاب منها:

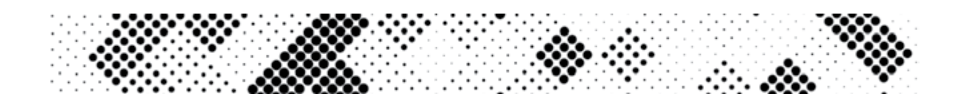
مقـال بعنـوان: (الراحلـون بهـدوء) بجريـدة الريـاض العـدد ١٤٥٢٩ للدكتـور: محمـد بـن عطيـة الحارثـي.

مقـال بعنـوان: (مـات المحـب والزميـل الناصـح) بجريـدة الريـاض العـدد ٤٥٢٩ للشـيخ: عبـد اللـه بـن عبـد العزيـز آل الشـيخ

قصيـدة للشـاعر: فيصل بن زايد بن شـرار الشـدادي الحارثـي (يا عين هلـي صافـي الدمـع مـدرار ❋ ومحـد يلـوم العيـن لا هـل ماهـا).

قصيـد للشـاعر: حمـد بـن فدغـوش الشـدادي الحارثـي (الله يا ليلـة خميـس الفجيعـة ❋ ثانـي عشـر ربيـع الأول رحـل مات).

ورؤيـة فيـه رحمـه العديـد مـن الـرؤى التـي تبشـر بالخيـر له من الله نسـأل اللـه أن يجعـل منزلته مـع الصديقين والشـهداء والصالحين ووالديـه والمسـلمين آمين.



## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين، أما بعد:

فقد طلب مني بعض المحبين أن أكتب رسالة (في أقسام التوحيد والموحدين)، حين سمع بعض محاضراتي في جوامع الرياض عن هذا الموضوع، وأَيْضًا طلب مني فضيلة اللواء الدكتور: فيصل بن جعفر بالي مدير عام الشؤون الدينية للقوات المسلحة أن أكتب رسالة مفيدة نافعة لمنسوبي القوات المسلحة، وقد وجدت من نفسي همة إلى التأليف في هذا الموضوع لأهميته، وإني لأرجو من الله عز وجل أن ينفعني به، وينفع به إخواني المسلمين في كل مكان، ولعل الله سُبحانه أن يجعله من العلم الذي أنتفع بحسناته بعد موتي، وعذري فيما قصرت فيه أو أخطأت إنني لم أتعمد ذلك، ولكل جواد كبوة، وكفى بالمرء نبلًا أن تعد معائبه، وما لا يدرك كله لا يترك جله، وأنا أشهد الله ثم أشهدكم إنني راجع عن كل شيء يخالف كتاب الله وسُنة رسوله، فأرجو من إخواني إذا وجدوا في كتابي هذا شيئًا من ذلك أن يصلحوه، وأن يستغفروا لأخيهم بظهر الغيب، وأن يستروا عليه، وأن يعلموني حتى أرجع إلى الحق، فالحق ضالة المؤمن أينما وجده أخذ به،

والمؤمن مرآة أخيه المؤمن[١]، ولا يفوتني أن أشكر إخواني الذين شاركوني في تأليف هذا الكتاب بإبداء رأي أو طبع أو تصحيح أو توجيه جزاهم الله خيرًا، كما أشكر صاحب السمو الملكي الأمير: سلطان بن عبد العزيز آل سعود النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام، وكذا أشكر صاحب السمو الملكي الأمير: عبد الرحمن بن عبد العزيز آل سعود نائب وزير الدفاع والطيران والمفتش العام، على ما قاما ويقومان به من طبع للكتب المفيدة وتوزيعها على منسوبي القوات المسلحة، حرصًا منهما على الحفاظ على عقيدتهم ومبادئهم الإسلامية، وإعلاء للروح المعنوية لجنود هذه الدولة الإسلامية، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله[٢]، فشكر الله لهما ذلك وأعانهما ووفقهما، وأعزهما بالإسلام، وأعز الإسلام بهما.

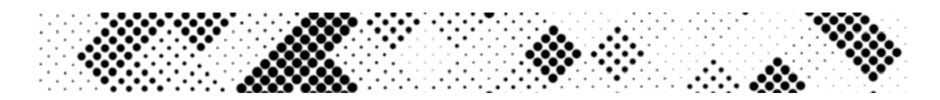
اللهم اجعلنا هداة مُهتدين غير ضالين ولا مُضلين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين،،،

**المؤلف**

---

(١) ورد حديث بهذا المعنى، انظره في: صحيح الجامع للألباني (٢/ ١١٣٠) برقم (٦٦٥٥)، و(٦٦٥٦).

(٢) هذا لفظ حديث رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٢٢)، برقم (٦٦٠١).



# أهمية التوحيد وفضله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن الله عز وجل خلق الخلق ليعبدوه قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

وأول أمر في القُرآن الكريم الأمر بعبادة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وأعظم العبادة توحيد الله عز وجل، والتوحيد هو أول واجب على المكلف، وآخر واجب، وهو أول ما يدخل به الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا[3] كما قال ﷺ: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»[4]، وقال ﷺ لعمه أبي طالب: «يا عم قل لا إله إلا الله،

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(٢) سورة البقرة الآيتان: ٢١-٢٢.

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد: ٣٦، ٣٧.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٣٤١)، و(٣/ ٤٩٢) وإسناده حسن.

كلمـة أحـاج لك بهـا عند اللـه»[١]، وقـال ﷺ: «مـن كان آخـر كلامه لا إلـه إلا اللـه دخل الجنـة»[٢]، وقد أمـر الله سُـبحانه بهذه العبـادة ما دام المكلـف حيًا، كما قـال تعالـى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[٣] وقـال عيسـى عليه السلام كمـا ذكـر الله ذلـك عنه حيـث قـال: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾[٤]، وقـال تعالـى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[٥] فـلا بـد أن تكـون العبـادة للـه وحـده لا شـريك لـه، كمـا قـال تعالـى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[٦]، وقـال تعالـى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ... ﴾[٧] وقـال تعالـى لنبيـه محمـد ﷺ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾[٨].

والعبـادة: اسـم جامـع لـكل مـا يحبـه اللـه ويرضـاه مـن الأقوال والأعمـال الظاهـرة والباطنـة[٩].

---

(١) رواه البخاري - الفتح (٨/ ٥٠٦) ح رقم ٤٧٧٢.
(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣)، وأبو داود برقم ٣١١٦ والحاكم (١/ ٣٥١) وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) سورة الحجر: الآية ٩٩.
(٤) سورة مريم الآيتان: ٣٠ - ٣١.
(٥) سورة الفاتحة الآية: ٥.
(٦) سورة الأنعام الآيتان: ١٦٢-١٦٣.
(٧) سورة الزمر الآيتان: ١-٣.
(٨) سورة الزمر الآيتان: ١٤-١٥.
(٩) انظر: تيسير العزيز الحميد: ٤٦.

وأعظـم العبـادة هـو توحيـد اللـه وإفـراده بالعبودية، بـأن تجعله واحـدًا فـي ربوبيتـه وإلهيتـه وأسـمائه وصفاتـه، لا شـريك لـه فـي ربوبيتـه، ولا فـي ألوهيتـه، ولا فـي أسـمائه وصفاتـه، كما قـال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾[1] وقـال لمعـاذ رضي الله عنه لمـا بعثـه إلـى أهـل اليمـن: «إنـك سـتأتي قومًا أهـل كتـاب فليكن أول مـا تدعوهـم إليـه شـهادة أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ فإن هـم أجابوك لذلك فأعلمهـم أن اللـه افتـرض عليهم خمس صلـوات في اليـوم والليلة»[2] الحديـث، وفـي روايـة: «فليكن أول مـا تدعوهـم إليه إلـى أن يوحدوا اللـه»[3]، وتوحيـد اللـه هـو الأسـاس الـذي بعـث اللـه بـه الرسـل -صلـوات ربـي عليهـم وسـلامه- مـن أولهـم إلـى آخرهم.

وتوحيـد اللـه هو سـبب التمكين فـي الأرض قـال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾[4] فهـو سـبب العـز والأمـن كمـا قـال تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[5] فالذيـن وحـدوا اللـه، ولـم يخلطوا توحيدهـم بظلـم النفـس، ولا بظلـم العبـاد، فأولئـك لهم الأمـن، وإذا

---

(١) سورة التوبة الآية: ٣١.

(٢) رواه البخاري - الفتح - (٨/ ٦٤).

(٣) رواه البخاري - الفتح - (١٣/ ٣٤٧).

(٤) سورة النور الآية: ٥٥.

(٥) سورة الأنعام الآية: ٨٢.

كانت هدايتهم تامة كاملة فلهم الأمن التام الكامل في الدينا والآخرة، وإذا كانت ناقصة فلهم أمن ناقص، وأما إذا كانوا كفارًا أو مشركين أو منافقين فلا أمن لهم في الدينا ولا في الآخرة، قال الله عز وجل في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾[2]، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: «لو صححت ما خفت».

وقال شيخ الإسلام: ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، كما ذكروا أن رجلًا شكى إلى الإمام أحمد بن حنبل «خوفه من بعض الولاة، فقال: لو صححت لم تخف أحدًا، أي: خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. أ.هـ.[3]» وقيل: «من خاف من الله خاف منه كل شيء، ومن خاف من غير الله خاف من كل شيء»[4]، قال شيخ الإسلام: وبعض الناس يقول: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك، وهذا كلام ساقط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده، ولا يخاف أحدًا، فإن من لا يخاف الله أخس وأذل من أن يخاف، فإنه ظالم، ومن أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى

(١) سورة الأنعام الآية: ٨١.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥١.
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٤٩).
(٤) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٧٤).

عنه. أ.هـ[١].

وسـبب عز دولتنا «الدولة السـعودية الإسـلامية» هو قيامها بنشـر التوحيـد ونصـرة أهلـه، ومحاربـة الشـرك والوثنيـة، بل هو سـبب قيام دولتنا الإسـلامية على عهـد الإمامين المجدّدين «محمد بن سـعود»[٢] و «محمـد بـن عبـد الوهـاب»[٣] -رحمهما اللـه- إلى وقتنـا الحاضر، ونحـن نعيـش فـي نعمـة التوحيـد التي هي مـن أعظـم النعـم علينا في هذه البلاد المباركـة، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[٤]، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٥].

ولـم يـأت الإمامـان المذكـوران بشـيء جديـد، وإنمـا جـددا ما أندثـر مـن الإسـلام، فأرجعـا النـاس إلـى مـا كان عليـه رسـول اللـه

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٥٧، ٥٨) و (١٤/ ٢٠٦).

(٢) هو الإمام محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة بن مريد، أمير الدرعية، ابتدأ حكمه سنة ١١٣٩هـ، وبعد تسعة عشر سنة من حكمه أتاه الإمام محمد بن عبد الوهاب، فآواه ونصره، فأعز الله دولته، ورفع ذكره، وجعله من أعوان الحق، وجعل العز والتمكين لسلالته إلى اليوم، وتوفي V في الدرعية سنة ١١٧٩هـ - انظر ترجمته في: عنوان المجلد لابن بشر (١/ ٦٣).

(٣) هو الشيخ الإمام المجدد للإسلام في القرن الثاني عشر من الهجرة محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد النجدي التميمي الحنبلي، ولد سنة ١١١٥هـ في العيينة، من مشايخه: أبوه، وعبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي صاحب «العذب في الفائض في علم الفرائض»، ومحمد حياة السندي، ومحمد المجموعي، ومن مؤلفاته: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، ومختصر زاد المعاد، ومختصر سيرة الرسول، وغيرها من الكتب النافعة، وتوفي هذا الإمام سنة ١٢٠٦هـ. انظر ترجمته في: عنوان المجلد لابن بشر (١/ ١٩) وتاريخ نجد لابن غنام: ص٨١.

(٤) سورة الأعراف الآية: ٤٣.

(٥) سورة يونس الآية: ٥٨.

-وأصحابـه-، فهمـا على منهـج السـلف الصالح، ولم يحدثـا في دين اللـه شـيئًا، ولكنهما جـددا لهذه الأمة أمـر دينها، ونهوهم عـن المنكر، وأمروهـم بالمعـروف، فأعانهـم اللـه سُـبحانه، ووفقهم، حتـى طهروا هـذه البـلاد مـن البـدع والشـرك والوثنيـة، ومـن ثَمَّ سـار علـى نهجها الملـك: عبـد العزيـز بـن عبـد الرحمـن آل سـعود -رحمة اللـه عليه- فقـام بنشـر العقيـدة والتوحيـد ومنهج السـلف الصالح، وقامـت دولته علـى هـذا الأسـاس فجمـع الله علـى يد هـذا الملـك المصلـح قبائل المملكـة، وقـد كانـوا مـن قبـل أعـداء متناحريـن، القـوى منهـم يأكل الضعيـف، فأصبحـوا إخوانًـا قـد ألّف الله بيـن قلوبهـم وجمعهم على الإسـلام العظيـم، ولـم يكتـف بذلـك هذا الإمـام الملـك عبـد العزيز بل قـام بنصب القضـاة والمعلميـن والآمرين بالمعـروف والناهين عن المنكـر، وطبـع الكتـب المفيدة على نفقتـه وتوزيعها على شـعبه، وقام بمناصحتهـم مـن حيـن لآخر.

ومـن أهـم نصائحـه التـي اطلعـت عليهـا هـذه النصيحـة القيمة، أقتطـف منهـا نبـذة مختصـرة تـدل علـى مكانة هـذا الإمـام مـن العلم وحـب الخيـر وبـذل النصـح لشـعبه الوفـي المسـلم: «من عبـد العزيز بـن عبـد الرحمـن بـن فيصـل آل سـعود إلـى مـن يـراه مـن إخواننـا الحجازييـن والنجدييـن واليمانييـن، سـلام اللـه عليكـم ورحمـة الله وبركاتـه، وبعـد:

بـارك اللـه فيكـم ... تفهمـون أن اللـه سـبحانه مـنّ علينـا بنعمـة

الإسـلام، ... ومـن أكبـر نعمـه علينا إنـزال كتابـه العزيز، وإرسـال نبيه الكريـم، وخلاصـة ذلـك وعمدته .. هـي الدعـوة لعبادة اللـه وحده لا شـريك له، وهـي مضمون لا إلـه إلا الله (وكل من قالهـا عارفًا لمعناها عامـلًا بمقتضاهـا فهو من أهلهـا وإلا فهـو كالأنعام بل هـو أضل)(١).. «فـإذا فهمنـا ذلـك، ووقـر فـي قلوبنـا، وصحـت العقيـدة .. فيجـب علينـا أن نتدبـر القُرآن وسُـنة الرسـول»، ومـا كان عليه مذهب السـلف الصالـح، ونعمـل بذلك ... وإنـي بحول اللـه وقوته سـائر ومثابر على هـذه الدعـوة المباركة، وأرجـو المولـى أن ينفع بهـا ..».أ.هـ(٢).

إِذًا فالتوحيـد هـو أول الديـن وآخـره، وباطنه وظاهـره، وهو أول دعـوة الرسـل وآخرهـا، وهـو الـذي لا يقبـل أي عمـل بدونـه(٣)، قـال تعالـى عـن المشـركين ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾(٤) وقـال تعالـى ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾(٥).

(١) ما بين القوسين معنى كلام الملك وليس لفظه حرفياً.
(٢) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية- كتاب النصائح- المجلد التاسع الجزء الحادي عشر ص(١٥٦- ١٦٠)، قلت: رحمةُ اللهِ على هذا الملك، الإمام، المصلح، فقد نصح رعيته، وبيّن لهم طريق الخير، وألزمهم بالحق، فجزاه الله خيرًا، وبارك في أبنائه ولاة أمورنا، وأعزهم الله ووفقهم وأعانهم على كل خير.
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد: ص٣٦.
(٤) سورة الفرقان الآية: ٢٣.
(٥) سورة الزمر الآيتان: ٦٥-٦٦.

والشـرك ضـد التوحيـد[١] وبالعكـس، أعنـي: التوحيـد ضـد الشـرك، ولا يكون المشـرك شـركًا أكبر مـن الموحدين أبـدًا، فلا يقبل منـه صـلاة، ولا زكاة، ولا حـج، ولا صيـام، ولا ينفعـه أي عمل يعمله مـا لم يكـن موحدًا، وهـو يخلّد في النار، ولا تنفعه شـفاعة الشـافعين، كمـا قـال تعالـى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٢] وقـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[٣].

إِذًا فمنزلـة التوحيـد عظيمـة كيـف لا؟! وهـو حـق اللـه علـى العبيـد، كمـا قـال رسـولنا لمعـاذ ﵁ وكان رديفًـا لـه علـى حمـار: «يا معـاذ»، قلت: لبيك وسـعديك يا رسـول اللـه -الحديث- وفيـه: فقال ﷺ: «حـق اللـه علـى العبـاد أن يعبـدوه ولا يشـركوا بـه شـيئًا، وحـق العبـاد علـى اللـه أن لا يعذب من لا يشـرك بـه شـيئًا»[٤]. وقد بيّـن الله سُـبحانه هـذا التوحيـد بيانًـا شـافيًا واضحًـا وصريحًـا فـي كتابـه الذي لا يأتيـه الباطـل مـن بيـن يديه ولا مـن خلفه، وفي سُـنة رسـوله ﷺ فلا

---

(١) لعلّ الله سبحانه أن يعينني في تأليف كتاب آخر عن أقسام الشرك والمشركين.
قلت: واخترمته المنية دون أن يحقق هذه الأمنية، وأسأل الله أن ييسر لي تحقيقها بفضله ومنه. (محمد).

(٢) سورة المائدة الآية: ٧٢.

(٣) سورة النساء الآية: ١١٦.

(٤) رواه البخاري - الفتح - (١٠/ ٣٩٧).

عذر لأحـد بعد هـذا[١].

وقـد روى البخـاري مـن حديث عبـادة بن الصامـت ﷺ قال: قال ﷺ: «مـن شـهد أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شـريك لـه، وأن محمدًا عبده ورسـوله، وأن عيسـى عبـد اللـه ورسـوله، وكلمتـه ألقاهـا إلـى مريم، وروحٌ منـه، والجنـةُ حـق، والنـارُ حـق، أدخلـه الجنـة على مـا كان من العمل»[٢].

يعنـي: أدخلـه اللـه الجنـة علـى مـا كان مـن العمـل صالحًـا أو فاسـدًا مـا دام قالهـا عـن إخـلاص، وإيمـان، ولكـن هـذا الدخـول قد يكـون مـع الداخليـن لأول وهلـة إذا مات علـى توبة، وصـدق، وعمل صالـح، وقـد يكون بعـد العـذاب إذا مات علـى السيئات والمعاصي، ولـم يتـب، ولـم يعـف عنـه، فإنه يدخـل النـار ويعـذب فيها علـى قدر جرائمـه، ثـم مصيره إلـى الجنة بعـد التطهير والتمحيـص وإخراجه من النـار، وهـذا الحديث يـدل على فضـل التوحيـد، وأنه يكفـر الذنوب، وأن أهلـه موعـودون بالجنة والكرامـة، ولكن هذه النصـوص المطلقة مقيـدة بنصـوص أخـرى، وأنـه لا بـد أن تتضمـن هـذه الشـهادة أداء حقهـا، عـن إيمـان، وصـدق، ومحبـة، وانقياد، وقبـول، ليس باللسـان فقـط، وأمـا من قالها بلسـانه وهو يشـرك باللـه في العمـل -كالمنافقين والوثنييـن- فـلا تنفعهـم، ومـن مات علـى المعاصـي والسـيئات فهو تحـت المشـيئة إن شـاء الله غفر له وإن شـاء اللـه عذبه ثـم مصيره إلى

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد: ٣٧ فما بعدها.

(٢) رواه البخاري - الفتح - (٦/ ٤٧٤).

الجنـة، مـا دام موحدًا.

وقـد روى الإمـام أحمـد بسـنده عن عبد اللـه بن عمـر رضي الله عنهمـا عـن النبـي ﷺ أن لوطًا عليه السلام قـال لابنه -عنـد موتـه-: «آمرك بـ لا إلـه إلا اللـه، فـإن السـموات السـبع والأرضيـن السـبع لـو وضعت فـي كِفـة، ولا إلـه إلا اللـه فـي كِفـة، رجحـت بهن لا إلـه إلا اللـه، ولو أن السـموات السـبع والأرضيـن السـبع كـن حلقـة مبهمـة قصمتهـن لا إلـه إلا اللـه»[١]، وهـذا الحديـث دليـل علـى فضـل التوحيـد أَيْضًا، فهـذه الأجـرام مع سـعتها وعظمتهـا ترجح بها هـذه الكلمـة من حيث المعنـى، نظـرًا للمعانـي والحقائـق، لأنـه سـبحانه وتعالـى لـه أعظـم معنـى، وأكبـر معنـى، وأهـم معنـى، وأصـدق معنـى، وهـو الواحـد الأحـد الـذي لا شـريك لـه، فأصحاب هـذه الكلمـة ترجـح موازينهم علـى غيرهـم، إذا صدقـوا فيهـا وكمّلوهـا، وأدوا حقهـا فإنهـا ترجـح بجميـع مـا لديهـم من سـيئات.

كمـا في حديـث البطاقة[٢]، فعن عبـد الله بن عمـرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «يصـاح برجل مـن أمتـي علـى رؤوس الخلائق يـوم القيامة، فينشـر له تسـعة وتسـعون سـجلًا، كل سـجل منها مد البصر، ثم يقال: اتنكـر مـن هذا شـيئًا؟ فيقـول: لا يـا رب، فيقـال: ألك عذر أو حسـنة؟ فيهـاب الرجـل، فيقـول: لا، فيقـال: بلـى إن لـك عندنا حسـنات، وإنه

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥) والحاكم (١/ ٤٨/ ٤٩) وصححه ووافقه الذهبي، وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٤/ ٢٢٠)، (١٠/ ٨٤).

(٢) هذا من كلام شيخنا العلامة ابن باز وهو محفوظ لدي في شريط في شرحه لكتاب التوحيد.

لا ظلـم عليـك فيخـرج له بطاقة فيهـا: أشـهد أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأشـهدُ أن محمـدًا عبـده ورسـوله، فيقـول: يـا رب مـا هـذه البطاقـة مـع هـذه السـجلات؟! فيقـال: إنـك لا تظلـم، فتوضـع السـجلات فـي كفـة، والبطاقـة فـي كفة، فطاشـت السـجلات وثقلـت البطاقة»[١].

وعـن أنـس رضي الله عنه قـال: سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: «قـال الله تعالـى: يـا ابن آدم لـو أتيتني بقـراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشـرك بـي شـيئًا لأتيتـك بقرابهـا مغفـرة»[٢]، وهـذا عنـد أهـل العلـم يحتمل أحـد وجهين:

**الوجـه الأول**: أن هـذا في حـق من قالهـا صادقًا مخلصًـا لـم يصر علـى سـيئة أصـلًا، قـد أتـى بكلمـة التوحيـد كاملـة خالصـة قـد أدى حقهـا، وليـس معهـا سـيئة أصلًا، بـل قـد جردهـا وأكملها حتـى صار مؤديًـا لجميـع الواجبـات تاركًا لجميع السـيئات، مسـتقيمًا على شـرع اللـه عـز وجل، لـم يـأتِ بسـيئة تمنع مـن دخـول الجنة.

وأمـا الوجـه الثانـي: أن هـذا فـي حـق مـن قالهـا وأتـى إلـى الله تائبًـا مـن خطايـاه وسـيئاته، ولـم يصر على سـيئة، بـل قد تـاب وأقلع، فخطايـاه كلهـا مرجوحـة وسـاقطة بسـبب إخلاصـه فـي هـذه الكلمـة

(١) رواه أحمد (٢/ ٢١٣، ٢٢١)، والحاكم (١/ ٦، ٥٢٩)، والبغوي في شرح السُنة (١٥/ ١٣٣، ١٣٤) وغيرهم. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الترمذي.

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٥٤، ١٧٢) و(٥/ ١٠٨) والترمذي برقم ٣٥٤٠، والحاكم (٤/ ٢٤١) وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الترمذي. من كلام شيخنا العلامة ابن باز في شرحه لكتاب التوحيد وهو محفوظ في شريط عندي.

الـذي تضمـن توبتـه مـن جميـع الذنـوب، وهـذا المعنـى لا بـد منـه لأن النصـوص الأخـرى مـن الآيـات والأحاديـث دلـت علـى أن أهل المعاصـي فـي خطـر وأنهـم متوعـدون بالنـار وأنهـم تحت المشـيئة، والنصـوص لا تناقـض بينهـا ولا تعـارض[١]، وعـن عتبـان ﵁ قـال: قـال رسـول اللـه ﷺ: «.. فـإن اللـه حـرم علـى النـار مـن قـال لا إلـه إلا اللـه يبتغـي بذلـك وجـه اللـه»[٢]، وعـن أبـي هريـرة ﵁ قـال: قـال رسـول اللـه ﷺ: «أشـهد أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ وأنـي رسـول اللـه لا يلقـى اللـه بهمـا عبـد غير شـاكٍ فيحجـب عنـه الجنـة»[٣]، وقال الرسـول ﷺ لأبـي هريـرة ﵁: «يـا أبـا هريـرة ... اذهـب بنعلـي هاتين، فمـن لقيت مـن وراء هـذا الحائـط يشـهد أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ مسـتيقنًا بها قلبه فبشـره بالجنـة»[٤]، وعـن عثمـان ﵁ قال: قال رسـول الله ﷺ: «مـن مات وهو يعلـم أنـه لا إله إلا اللـه دخل الجنـة»[٥]، فمن قـال هذه الكلمـة «كلمة التوحيـد» عـن إخلاص وصـدق، ومـات عليه أدخلـه الله الجنـة، فإن كانـت لـه ذنـوب ومعاصي لم يتـب منها فهو تحت مشـيئة اللـه، ولكن مـن قالهـا ابتغـاء وجـه اللـه عن صـدق وإخـلاص كامـل فإنـه لا يصر علـى السـيئات لأن إيمانـه الكامل وإخلاصـه التام يمنعه مـن الإصرار علـى السـيئات ومن الإقامـة علـى المعاصي، فـإن الذي يدخـل الجنة

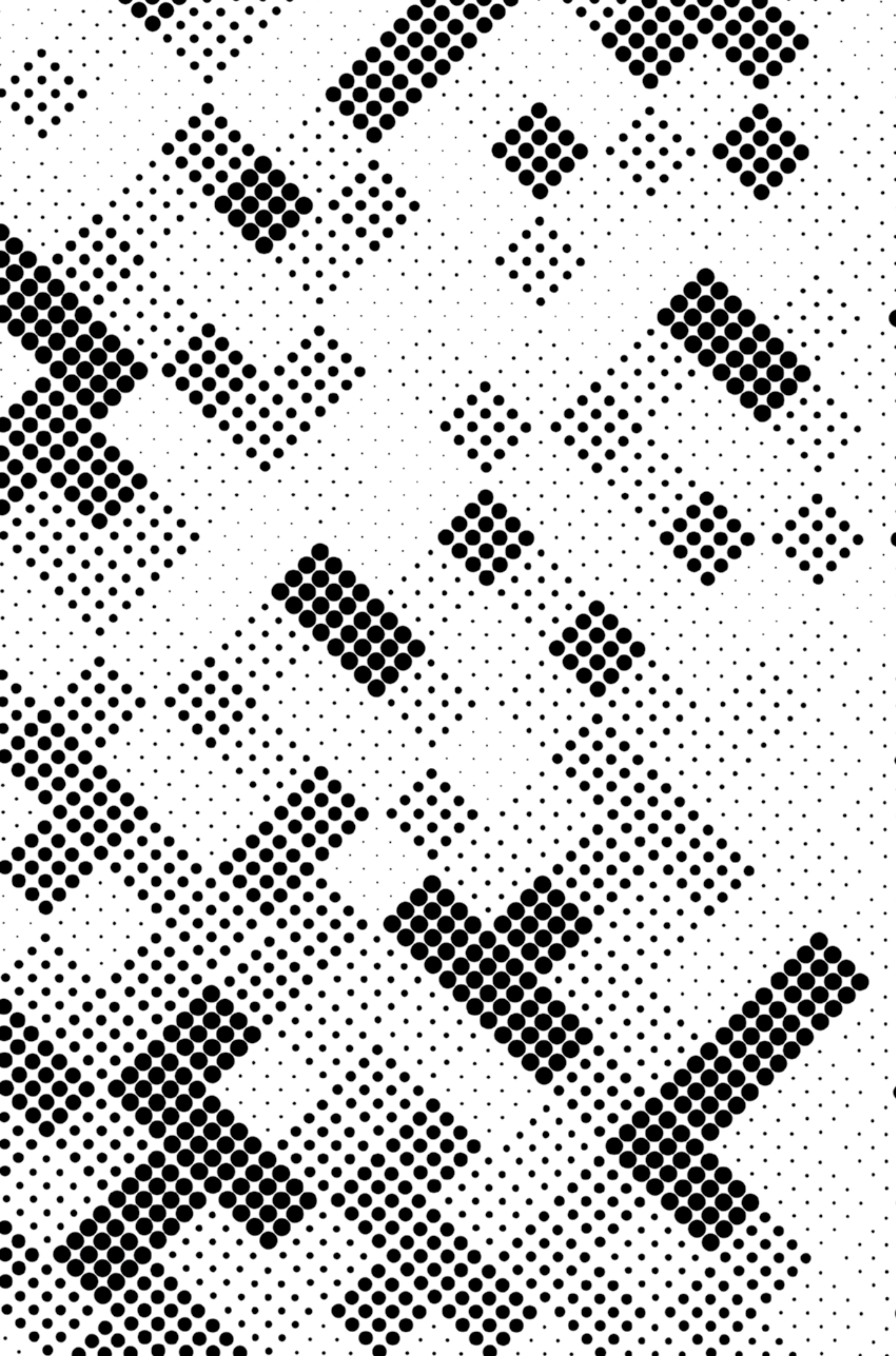
(١) من كلام شيخنا العلامة ابن باز في شرحه.
(٢) رواه البخاري - الفتح - (١/ ٥١٩).
(٣) رواه مسلم (١/ ٥٥، ٥٧) كتاب الإيمان برقم ٤٤، ٤٥.
(٤) رواه مسلم - صحيح مسلم - (١/ ٥٩، ٦٠)، برقم ٥٢ من كتاب الإيمان.
(٥) رواه مسلم (١/ ٥٥) كتاب الإيمان برقم ٤٣.

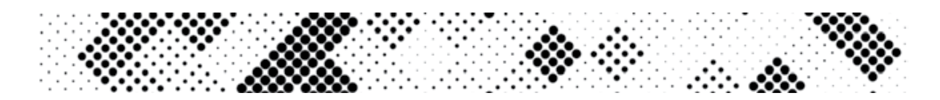
لأول وهلة إنما يدخلها بسبب إيمانه الكامل بالله وإخلاصه وتقواه، وقيامه بحقه، وأما من لطخ توحيده بالمعاصي والسيئات فهذا تحت مشيئة الله كما دل عليه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]، وكما ثبت في الأحاديث الصحيحة المتواترة الدالة على أن أهل المعاصي معرضون للوعيد وأن كثيرًا منهم يدخلون النار ويعذبون فيها على قدر جرائمهم بسبب ما تلطخوا به من المعاصي التي أضعفوا بها توحيدهم وإيمانهم، فصاروا بذلك معرضين لدخول النار -إلا من رحم الله سُبحانه-، وأنهم بعد هذا يخرجون بشفاعة النبي ﷺ، وبشفاعة الأنبياء، -وبشفاعة المؤمنين، وبرحمة الله سُبحانه من غير شفاعة أحد-[2].

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٢) من كلام شيخنا العلامة ابن باز في سرحه لكتاب التوحيد وهو محفوظ في شريط عندي.





# أقسام التوحيد

إن أقسـام التوحيـد -بعد اسـتقراء كتاب اللـه سُـبحانه- لا تخرج عن ثلاثة أقسـام هي:

- توحيد الربوبية.

- وتوحيد الألوهية.

- وتوحيد الأسماء والصفات.

وكلها موجودة في كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ.

١- فأمـا توحيـد الربوبيـة: فهـو التوحيـد الـذي اعتـرف بـه المشـركون، ولـم يدخلهـم في الإسـلام، بـل قاتلهـم رسـول الله ﷺ، واسـتحل دماءهـم وأموالهم، وجعـل الله سُـبحانه هـذا التوحيد حجة علـى المشـركين ليعترفوا بالتوحيـد الثاني الـذي هو: توحيـد الألوهية ولكنهـم أبـوا أن يقـروا بتوحيـد الألوهيـة الـذي هـو معنـى: لا إلـه إلا الله.

قـال العلامـة سـليمان بن عبـد الله فـي بيان هـذا القسـم: توحيد الربوبيـة والملـك، هـو الإقـرار بأن اللـه تعالـى رب كل شـيء ومالكه ورازقـه، وأنـه المحيي المميـت، النافع الضـار، المتفرد بإجابـة الدعاء عنـد الاضطـرار، الـذي لـه الأمر كلـه، وبيـده الخير كلـه، القـادر على

مـا يشـاء ليـس له في ذلـك شـريك، ويدخل في ذلـك الإيمـان بالقدر، وهـذا التوحيـد لا يكفـي العبـد فـي حصـول الإسـلام، بـل لا بـد أن يأتـي مـع ذلك بلازمـه مـن توحيد الإلهيـة، لأن اللـه تعالـى حكى عن المشـركين أنهـم مقـرون بهـذا التوحيـد للـه وحـده ... ولـم يكونـوا بذلـك مسـلمين، بـل قـال اللـه تعالـى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[١] قـال مجاهـد فـي الآية: إيمانهـم بالله قولهـم: إن الله خلقنـا ويرزقنـا ويميتنا، فهـذا إيمان مع شـرك عبادتهم غيـره، رواه ابن جريـر وابـن أبـي حاتـم، ... فتبيـن أن الكفـار يعرفـون اللـه ويعرفـون ربوبيتـه، وملكـه وقهـره، وكانـوا مـع ذلـك يعبدونـه ويخلصـون لـه أنواعًـا مـن العبـادات كالحـج والصدقة والذبـح والنـذر والدعاء وقت الاضطـرار ونحـو ذلـك، ويدعـون أنهم على ملـة إبراهيـم عليه السلام، فأنزل اللـه تعالـى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٢]، وبعضهـم يؤمـن بالبعـث، وبعضهـم يؤمـن بالقدر:

كما قال زهير:

يؤخر فيوضـــع في كتاب فيدخر ليوم الحســـاب أو يجعل فينقم

وقال عنترة:

يا عبل أين مـــن المنية مهرب إن كان ربي في الســـماء قضاها

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٦.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٦٧.

ومثل هذا يوجد في أشعارهم، فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم، وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم، مع هذا الإقرار والمعرفة، وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا إله إلا الله[(١)].أ.هـ.

إِذًا فهذا التوحيد الذي اعترف به المشركون، هو توحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعال الله، وأن الله سُبحانه هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر، المالك، المتصرف في الكون كله علوْيّه وسفليّه، فهو الذي يأتي بالشمس والقمر والليل والنهار، وينزل المطر، وينبت النبات، ويخلق الخلق، فلا خالق ولا محيي إلا الله، ولا رازق إلا هو ولا مالك إلا هو ولا متصرف إلا هو فهو المالك المدبّر المتصرف الخالق.

قال الله سُبحانه في هذا النوع: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[(٢)]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[(٣)]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[(٤)]، يعني: أفلا تتقون ربكم فتعبدونه وحده لا شريك له وتقولوا: لا إله إلا الله.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد: ٣٣، ٣٤، الاستقامة لابن تيمية (٢/ ٣١)، منهاج السنة (٥/ ١٨٣، ٢٥٧، ٣٢٧، ٣٥٥).

(٢) سورة الزخرف الآية: ٨٧.

(٣) سورة الزخرف الآية: ٩.

(٤) سورة يونس الآية: ٣١.

وهـذا التوحيد قد فطـر الله عليه الخلـق ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]، ولهـذا اعترف بهذا التوحيد المشـركون فـي وقـت نبينـا محمـد ﷺ كما ذكـرت ذلـك قبل قليـل، بل اعتـرف به إبليـس ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٢]، بـل حتـى البهائم تعرف أن الخالـق الـرازق اللـه فـإذا تعسـرت ولادتهـا دمعت عيناهـا ورفعت بصرهـا إلـى اللـه[٣]، والنملـة رفعـت قوائمهـا وقالـت: إنّـا خلـق مـن خلقـك فـلا تؤاخذنا بذنوب بنـي آدم فقال سـليمان عليه السلام -لما سـمعها وقـد ذهب ليستسـقي-: «ارجعـوا فقد سـقيتم بدعـوة غيركم»[٤].

ولـم ينكـر هـذا التوحيـد قديمًـا إلا فرعـون والنمرود بـن كنعان، وأمـا فـي عصرنـا الحاضـر فأنكـره الشـيوعيون الذيـن يقولـون: لا إله والحيـاة مـادة، وفرعـون قـال: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[٥]، وقـال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[٦]، والنمـرود حـاجّ إبراهيـم الخليـل عليه السلام فـي ربـه عـز وجـل ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ قـال النمـرود: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾، ﴿ قَالَ

(١) سورة الروم الآية: ٣٠.
(٢) سورة الحجر الآية: ٣٦.
(٣) سمعته من بعض مشايخنا الأفاضل، قلت: وأنا سمعتهُ من شيخنا رحمه الله. (محمد).
(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣١٢) و(١٣/ ٢٠٧)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٩٥، ٩٩)، وانظر: تخريج الحديث في إرواء الغليل (٣/ ١٣٨)، وفي التكميل لما فات تخريجه من إرواء الغليل ص٢٩، وينظر شفاء العليل لابن القيم ص١٥١.
(٥) سورة النازعات الآية: ٢٤.
(٦) سورة القصص الآية: ٣٨.

إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾[١]، ومع ذلك فإن هؤلاء المشركين -في الربوبية- يعلمون أن هناك خالقًا، ولكنهم جحدوا بها استكبارًا مع استيقانهم بذلك فطرة كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[٢] ولهذا قال فرعون لوزيره -هامان- كما ذكر الله عنه: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾[٣]، فلم ينفعه هذا الإيمان لأنه جاء متأخرًا -وقت الغرغرة- وقال لما أدركه الغرق، فهذا قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾[٤].

وقد أشرك بعض القبوريين في توحيد الربوبية أَيْضًا كما أشركوا في توحيد الألوهية فظنوا أن آلهتهم التي يدعون من دون الله تتصرف في الكون، وتعلم الغيب، وتحيي وتميت، وتشارك الله في أفعاله، كما وقع ذلك من اليهود الذين ادعوا أن عزيرًا ابن الله، والنصارى يقولون: المسيح ابن الله، أو أنه جزء من الله، وادعوا أَيْضًا أن لله صاحبة، وهذا بلا شك شرك في الربوبية مع شركهم وضلالهم في الألوهية[٥].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٨.
(٢) سورة النمل الآية: ١٤.
(٣) سورة غافر الآيتان: ٣٦-٣٧.
(٤) سورة النساء: الآية ١٨.
(٥) وسيأتي مزيد بحث في الكتاب الثاني - إن شاء الله تعالى - أعانني الله على تأليفه.

١- قال العلامة سليمان بن عبد الله رحمه الله: الشرك في الربوبية نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون، إذ قال: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]؟ ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معروفًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها: العقول والنفوس، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود كابن عربي، وابن سبعين، والعفيف التلمساني، وابن الفارض ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حلية الإسلام، ومزجوه بشيء من الحق، حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر، ومن هذا الشرك شرك من عطّل أسماء الرب وأوصافه، من غلاة الجهمية والقرامطة.

الثاني: شرك من جعل مع الله إلهًا آخر، ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصائبة وغيرهم ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات،

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٣.

ويفرجـون الكربـات، وينصـرون مـن دعاهـم، ويحفظـون مـن التجـأ إليهـم ولاذ بحماهـم، فـإن هـذه مـن خصائـص الربوبيـة كمـا ذكـره بعضهـم فـي هـذا النوع[1].أ.هـ.

وأمـا النـوع الثانـي: -من أنـواع التوحيـد- فهو توحيـد الألوهية، ويسـمى توحيـد العبـادة، وهـو توحيد اللـه بأفعـال العباد، وهـو معنى قـول: لا إلـه إلا اللـه فـإن معناهـا: لا معبـود بحـق إلا اللـه سُـبحانه، فتتألهـه بالحـب، والتعظيـم، والخـوف، والرجـاء، فـلا تسـجد إلا له، ولا تدعـو إلا إيـاه، ولا تسـتغيث إلا بـه، ولا تنحـر إلا لـه، ولا تعبد إلا إيـاه وحـده لا شـريك له.

١- قـال العلامـة سـليمان بـن عبـد اللـه: «الإلـه هـو المعبـود بالمحبـة، والخشـية، والإجـلال، والتعظيـم، وجميـع أنـواع العبـادة، وتوحيـد الإلهيـة مبنـي علـى إخـلاص التألـه للـه تعالـى مـن المحبة، والخـوف، والرجاء، والتـوكل، والرغبـة والرهبة، والدعـاء لله وحده، وينبنـي على ذلك إخـلاص العبادات كلهـا ظاهرها وباطنهـا لله وحده لا شـريك لـه، لا يجعـل فيهـا شـيئًا لغيـره، لا لملـك مقـرب، ولا لنبي مرسـل، فضـلًا عن غيرهـا»[2]، وسـمي توحيـد الإلهية: لأنـه مبني على إخـلاص التأله، وهو أشـد المحبة للـه وحده، وذلك يسـتلزم إخلاص العبـادة، وتوحيـد العبـادة لذلـك، وتوحيـد الإرادة: لأنــه مبنـي علـى إرادة وجـه اللـه بالأعمـال، وتوحيـد القصـد: لأنه مبنـي على إخلاص

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد: ٤٣،٤٤ بتصرف يسير.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢٦.

القصـد المسـتلزم لإخـلاص العبـادة لله وحـده، وتوحيـد العمل: لأنه مبنـي علـى إخـلاص العمل للـه وحـده[١]» أ.هـ.

وهـذا التوحيـد أنكـره المشـركون فقـال اللـه عنهـم: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٢] وقـال سُـبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٣]، فاعترفـوا بتوحيـد وأنكـروا آخـر فاصطلـح العلمـاء قديمًـا وحديثًا على تسـمية مـا اعترفوا بـه توحيـد الربوبية وما أنكـروه توحيـد الألوهية.

وتوحيـد الألوهيـة هو حقيقة دين الإسـلام الذي لا يقبـل الله من أحد سـواه، ولأجـل هذا التوحيـد خلقت الخليقة، وأُرسـلت الرُسـل، وأُنزلـت الكُتـب، وبه افترق النـاس إلى مؤمنيـن وكفار، وسُـعداء أهل الجنـة، وأشـقياء أهـل النـار[٤]، وهـو معنـى شـهادة أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ ، وقـد صـارت الخصومـة بين الأنبيـاء وبيـن أقوامهـم في هـذا التوحيد أعنـي توحيـد الإلهيـة (توحيـد العبادة توحيـد اللـه بأفعال العبـاد) قال تعالـى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ ... ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[٥].

(١) المصدر السابق: ٢٦.
(٢) سورة ص الآية: ٤-٥.
(٣) سورة الصافات الآيات: ٣٥-٣٧.
(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد: ٣٦،٣٩.
(٥) سورة النحل الآية: ٣٦.

وكل رسـول يقـول لقومـه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[١].

١- قـال العلامـة سـليمان بن عبـد الله يرحمـه الله: وقـد تضمن توحيـد الإلهيـة، جميـع أنـواع العبـادة، فيجـب إخلاصهـا للـه تعالى، فمـن أشـرك بيـن اللـه تعالـى، وبيـن غيـره فـي شـيء فليـس بمسـلم، فمنهـا: المحبـة: فمـن أشـرك بيـن اللـه تعالـى وبين غيـره فـي المحبة التـي لا تصلـح إلا للـه فهو مشـرك (قلـت: يعني مشـرك شـركًا أكبر)، ومنهـا التـوكل: فـلا يتـوكل إلا علـى اللـه فيمـا لا يقـدر عليـه إلا الله، والتـوكل علـى غيـر اللـه فيمـا يقـدر عليه شـرك أصغر.

ومنهـا: الخـوف، فـلا يخـاف خـوف السر إلا مـن اللـه، ومعنى خـوف السـر: هو أن يخـاف العبد من غير اللـه تعالـى أن يصيبه مكروه بمشـيئته وقدرتـه وإن لـم يباشـره، فهذا شـرك أكبـر، لأنه اعتقـاد للنفع والضـر في غيـر الله.

ومنهـا: الرجـاء فيمـا لا يقـدر عليـه إلا اللـه كمن يدعـو الأموات أو غيرهـم راجيًـا اللـه حصـول مطلوبـه مـن جهتهـم فهذا شـرك أكبر، ومنهـا: الصـلاة والركوع والسـجود، ومنهـا: الدعاء فيمـا لا يقدر عليه إلا اللـه سـواء كان طلبًـا للشـفاعة أو غيرهـا مـن المطالـب، ومنهـا: الذبـح، والنـذر، والطـواف، فـلا يطـاف إلا ببيـت اللـه، ومنهـا: التوبة فـلا يتـاب إلا إلـى الله، ومنهـا: الاسـتعاذة فيمـا لا يقدر عليـه إلا الله، ومنهـا الاسـتغاثة فيمـا لا يقـدر عليـه إلا اللـه، فمـن أشـرك بيـن اللـه

(١) كما في الأعراف: ٦٥، ٨٥، وأيضًا في سورة هود الآية: ٦١.

تعالـى وبيـن مخلـوق فيمـا يختـص بالخالق تعالـى من هـذه العبادات أو غيرهـا فيهـو مشـرك، وإنمـا ذكرنا هـذه العبـادات خاصـة، لأن عباد القبـور صرفوهـا للأمـوات مـن دون اللـه تعالـى، أو أشـركوا بيـن الله تعالـى وبينهـم فيهـا، وإلا فـكل نـوع مـن أنـواع العبـادة، مـن صرفـه لغيـر اللـه، أو أشـرك بيـن اللـه تعالـى وبيـن غيـره فيـه، فهـو مشـرك، وهـذا الشـرك فـي العبـادة هو الـذي كفّر اللـه بـه المشـركين، وأباح به دماءهـم وأموالهـم ونسـاءهم، وإلا فهـم يعلمـون أن اللـه هـو الخالق الـرازق المدبـر ليـس له شـريك في ملكـه، وإنما يشـركون بـه في هذه العبـادات ونحوهـا، ... فأتاهـم النبـي ﷺ بالتوحيد، الذي هـو معنى لا إلـه إلا اللـه، الـذي مضمونه أن لا يعبـدون إلا اللـه، لا ملك مقرب ولا نبي مرسـل، فضـلًا عـن غيرهما[1]. أ.هـ.

١- وقال أَيْضًا: والشرك في توحيد الإلهية والعبادة نوعان:

أحدهمـا: أن يجعـل اللـه نـدًا، يدعـوه كمـا يدعـو اللـه، ويسـأله الشـفاعة كمـا يسـأل اللـه، ويرجـوه كمـا يرجـوه، ويحبـه كمـا يحبـه، ويخشـاه كما يخشـى اللـه، وبالجملة هـو أن يجعـل لله نـدًا يعبده كما يعبـد اللـه، وهـذا هـو الشـرك الأكبر.

الثانـي: الشـرك الأصغـر كيسـير الريـاء، والتصنـع للمخلـوق، وعـدم الإخـلاص للـه تعالى فـي العبـادة، بل يعمـل لحظ نفسـه تارة، ولطلـب الدنيـا تارة، ولطلـب المنزلة والجـاه عند الخلق تـارة، فله من

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد: ٣٩-٤٢ بتصرف واختصار.

عملـه نصيـب، ولغيـره منه نصيـب، ويتبـع هذا النـوع الشـرك بالله في الألفـاظ كالحلـف بغيـر الله، وقـول: ما شـاء اللـه وشـئت، ومالي إلا اللـه وأنـت، وأنـا في حسـب الله وحسـبك، ونحـوه، وقد يكـون ذلك شـركًا أكبر بحسـب حـال قائلـه ومقصده[١].أ.هـ.

وأول مـن وقـع في إنـكار هـذا التوحيد فصـرف العبـادة لغير الله سُـبحانه هـم قـوم نوح عليه السلام حيـث كان الناس مـن آدم إلى نـوع عليهما السـلام على التوحيـد، وبينهما عشـرة قرون[٢].

فقـد ذكـر ابـن القيـم: إن الشـيطان لـم يـزل يخـدع أبوينـا (آدم وحـواء) ويعدهمـا، ويمنيهمـا الخلـود فـي الجنـة، حتـى حلـف لهما باللـه جهـد يمينـه: إنـه ناصـح لهما، حتـى أطمأنـا إلـى قولـه فأجاباه، وأكلا مـن الشـجرة، ووقعـا فـي المعصيـة ثم تـاب الله عليهمـا، وغفر لهمـا، ثـم كاد الشـيطان، بأحـد ولـدي آدم، ولـم يـزل يتلاعـب به حتى قتـل أخـاه، وأسـخط أباه، وعصـى مولاه، فقطـع رحمه، وعـقّ والديه، وأسـخط ربه، وظلم نفسـه، ثـم جرى الأمر على السـداد والاسـتقامة، والأمـة واحـدة، والديـن واحـد، والمعبـود واحـد، كمـا قـال تعالـى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

---

(١) المصدر السابق: ٤٤، ٤٥.

(٢) روى الحاكم في مستدركه بإسناده عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: «نعم معلّم مكلّم»، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون»، قال: كم بين نوح وإبراهيم؟ قال: «عشرة قرون» ... الحديث، وصححه الحاكم وقال على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. انظر: المستدرك للحاكم (٢/ ٦٦٢).

سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[١]، وقـال تعالـى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[٢]، قـال سـعيد عن قتـادة: «ذكر لنـا أنه كان بيـن (آدم)، و(نوح) عليهما السـلام عشـرة قـرون كلهم على الهـدى، وعلى شـريعة من الحق، ثـم اختلفوا بعـد ذلـك، فبعـث اللـه عـز وجـل نوحًـا ﵇، وكان أول رسـول بعثه اللـه تعالـى إلـى أهـل الأرض، وبعـث عنـد الاختـلاف بيـن النـاس وتـرك الحـق»، وقـال ابن عبـاس: «كان الناس أمـة واحـدة: كانوا على الإسـلام كلهم».

وهـذا هو القـول الصحيح فـي الآية، ولكـن عدو الله لـم يتركهم علـى الإسـلام بل كادهـم وتلاعب بهـم حتى انقسـموا قسـمين، كفارًا ومؤمنيـن، فكادهـم بعبـادة الأصنام، وإنـكار البعـث، وكان أول ما كاد بـه عبّـاد الأصنـام مـن جهـة العكـوف علـى القبـور، وتصاويـر أهلها، ليتذكروهم بها[٣].أ.هـ.

والمقصـود إن الشـيطان زيـن لقـوم نـوح أن يصـوّروا صـور الصالحيـن، ليتذكـروا أعمالهـم.

– وكان في وقتهم خمسـة رجال صالحون هم ود وسواع ويغوث ويعـوق نسـر– فصـوّروا صورهـم ليتذكـروا أعمالهـم الصالحـة، فلم

---

(١) سورة يونس الآية: ١٩.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢١٣.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٠٢–٢٠٥) بتصرف واختصار.

تعبـد، ثـم وسـوس الشـيطان لأحفادهم مـا صـوّر آباؤكم هـذه الصور إلا لتعبدوهـا، فتقربكـم عنـد الله، وتشـفع لكـم عند ربكـم، فعبدوها، واسـتغاثوا بهـا، وتقربـوا إليهـا، ودعوهـا مـن دون اللـه، فوقع الشـرك فيهـم، فأرسـل الله لهـم نوحًا عليه السلام، وهذا أول شـرك وقـع في الأرض، فمكـث فيهـم ألف سـنة إلا خمسـين عامًا يدعوهـم فلم يؤمـن معه إلا قليـل، بـل كان بعضهم يوصـي بعضًا بالاسـتمرار في عبـادة الصالحين مـن دون اللـه عـز وجـل، كمـا ذكر اللـه ذلك عنهـم في قولـه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[١] وهكـذا اسـتمر المشـركون يعبدون الخلـق ويتركون عبـادة الخالـق، حتى كان مشـركوا قريش يعبـدون الـلات والعزى ومنـاة وغيرها.

قـال البخاري عـن ابن عبـاس رضي الله عنه: «صارت الأوثـان التي في قوم نـوح فـي العـرب؛ أمـا ودّ فكانـت لكلـب بدومة الجنْـدل، وأما سـواع فكانـت لهذيـل، وأمـا يغوث فكانـت لمراد، ثـم لبني غطيـف بالجرف عنـد سبأ، وأما يعـوق فكانـت لهمدان، وأما نسـر فكانـت لحمير، لآل ذي الـكلاع، أسـماء رجـال صالحين من قـوم نوح، فلمـا هلكوا أوحى الشـيطان إلـى قومهـم أن انصبـوا إلى مجالسـهم التـي كانوا يجلسـون أنصابًـا وسـموها بأسـمائهم ففعلـوا، فلم تعبـد، حتى إذا هلـك أولئك وتنسّـخ العلم عبدت»[٢].

---

(١) سورة نوح الآية: ٢٣.
(٢) صحيح البخاري - الفتح - (٨/ ٦٦٧).

والشبهة عند جميع المشركين في عبادة هذه الآلهة هي أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه زلفى، وقد بيّن الله سُبحانه أن هذه الشبهة باطلة فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] وقال: ﴿...وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[3] إلى غير ذلك من الأدلة العظيمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وفي وقتنا الحاضر لعب الشيطان على بعض المنتسبين إلى الإسلام فأوقعهم في هذا الشرك بعينه، وتلك شبهة قديمة يرددها بعضهم اليوم، وزيّن لهم الشيطان أن الأولياء ينفعونهم، ويضرونهم، ويقضون حوائجهم، فترك هؤلاء المشركون المعاصرون ربهم وخالقهم، والتجأوا إلى عبادة المخلوقين، يدعونهم من دون الله، وينحرون لهم، ويستغيثون بهم، وهؤلاء هم عبدة القبور الذين عبدوا الحسين

---

(١) سورة يونس الآية: ١٨.
(٢) سورة الزمر الآية: ٣.
(٣) سورة فاطر الآيتان: ١٣-١٤.

ﷺ وعبـدوا عبـد القـادر الجيلانـي والبـدوي والعيـدروس، فوقعـوا فيمـا وقـع فيـه الأولـون مـن الشـرك الأكبـر فلـم يوحـدّوا اللـه توحيد الألوهيـة واعتقـدوا أن معنـى لا إلـه إلا اللـه: لا خالـق ولا رازق إلا اللـه فلـم يعرفـوا معنـى «لا إلـه إلا الله» كما عرفـه الأولـون الذين نزل القُـرآن بلغتهـم العربيـة الفصحـى فوقعوا في كيد الشـيطان ووسوسـته واعتقـدوا أن دعوتهـم لهـؤلاء الأوليـاء والصالحين والأنبيـاء إنما هي وسـيلة تقربهـم عند الله، وتشـفع لهـم عند اللـه، فصار شـركهم أعظم من شـرك الأوليـن، لأنهـم يدعون هـذه الآلهة فـي الرخاء والشـدة[1]، بينمـا الأولـون يدعـون آلهتهم مـن دون الله فـي الرخاء فقـط، وأما في الشـدة فيخلصـون الدعـاء للـه، قـال تعالـى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[2]، فصـار هؤلاء المشـركون في وقتنا يقولون بألسـنتهم لا إلـه إلا الله، ويصلون، ويحجـون، ولكنهـم يعبـدون مـن دون الله مـا لا ينفعهـم ولا يضرهم، ولا يملـك لهـم حيـاة ولا موتًـا، ولا يخلقـون شـيئًا وهم يخلقـون، فيا حسـرة علـى العباد مـا يأتيهـم من رسـول إلا كانـوا به يسـتهزئون.

قـال شـيخ الإسـلام يرحمـه اللـه: «وأمـا المنكـر الذي نهـى الله

---

(١) بل بعضهم: أشرك في الربوبية أيضاً: فادعوا فيها التصرف في الكون، وتدبيره، وعلم الغيب، ونحو ذلك، كما يعلم ذلك من خالطهم، وعرف أحوالهم، ورأى ما يفعلونه عند القبور، وقلّ من ينكر عليهم ذلك، ويبين لهم حقيقة التوحيد الذي بعث بها نبينا محمد والرسل من قبله صلوات ربي وسلامه عليهم.

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٦٥.

عنـه ورسـوله: فأعظمـه الشـرك باللـه، وهـو أن يدعـو مـع اللـه إلهًـا آخـر كالشـمس والقمـر والكواكـب، أو كملـك مـن الملائكـة، أو نبي مـن الأنبيـاء، أو رجـل مـن الصالحيـن، أو أحـد مـن الجـن، أو تماثيل هـؤلاء، أو قبورهـم، أو غيـر ذلـك ممـا يُدعـى مـن دون اللـه تعالى أو يسـتغاث به أو يسـجد لـه، فكل هذا وأشـباهه من الشـرك الـذي حرمه اللـه على لسـان جميـع رسـله ..»[1].أ.هـ.

وقـال العلامـة ابـن قيـم الجوزيـة: «هـذه المشـاهد المشـهودة اليـوم قد اتخذهـا الغلاة أعيـادًا للصلاة إليهـا والطواف بهـا، وتقبيلها، واسـتلامها، وتعفيـر الخـدود علـى ترابهـا، وعبـادة أصحابهـا، والاسـتغاثة بهـم، وسـؤالهم النصـر، والـرزق، والعافيـة، وقضـاء الديـون، وتفريـج الكربـات، وإغاثـة اللهفـات، وغيـر ذلـك مـن أنواع الطلبـات، التـي كان عبـاد الأوثـان يسـالونها أوثانهم، ومـن لم يصدق ذلـك فليحضـر مشـهدًا مـن مشـاهدهم المعروفـة حتـى يـرى الغلاة، وقـد نزلـوا عنـد الـدواب -إذا رأوهـا مـن مـكان بعيـد- فوضعـوا لها الجلبـة، وقبلّـوا الأرض، وكشـفوا الـرؤوس، وارتفعـت الأصـوات بالضجيـج، وتباكـوا حتـى تسـمع لهـم النشـيج، ... فاسـتغاثوا بمن لا يبـدي ولا يعيـد، .. يبتغـون فضـلًا مـن الميـت ورضوانًـا، وقـد ملأوا أكفهـم خيبـة وخسـرانًا فلغيـر الله -بل للشـيطان- مـا يـراق هناك من العبـرات، ويرتفـع من الأصـوات، ويطلب مـن الميت مـن الحاجات،

(١) الاستقامة (٢/ ٢١٠).

ويسـأل مـن تفريـج الكربـات، وإغنـاء ذوي الفاقـات، ومعافـاة أولـي العاهـات والبليّـات...»[١] أ.هـ.

وقـال أَيْضًـا: «ومـن جمـع بين سُـنة رسـول اللـه ﷺ فـي القبور، ومـا أمـر به ونهى عنـه، ومـا كان عليـه أصحابه، ومـا عليه أكثـر الناس اليـوم، رأى أحدهمـا مضـادًا للآخـر، مناقضًـا لـه، بحيـث لا يجتمعان أبـدًا، فنهـى رسـول اللـه ﷺ عن الصـلاة إلى القبـور، وهـؤلاء يصلون عندهـا وإليهـا، ونهـى عـن اتخاذهـا مسـاجد، وهـؤلاء يبنـون عليهـا المسـاجد، ويسـمونها مشـاهد، مضاهـاة لبيـوت الله، ونهى عـن إيقاد السـرج عليهـا، وهـؤلاء يوقفـون الوقـوف على إيقـاد القناديـل، ونهى عـن أن تتخذ عيـدًا، وهـؤلاء يتخذونهـا أعيـادًا ومناسـك، ويجتمعون لهـا كاجتماعهـم للعيد أو أكثر، وأمر بتسـويتها ... وهـؤلاء يبالغون في المخالفـة فيرفعونهـا عـن الأرض كالبيـت، ويعقـدون عليهـا القبـاب، ونهـى عـن تجصيـص القبـر والبنـاء عليـه، ونهـى عـن الكتابـة عليـه، وهـؤلاء يتخـذون عليهـا الألـواح، ويكتبـون عليهـا القـراءة وغيرهـا، ونهـى عـن أن يـزاد عليهـا غيـر ترابها، وهـؤلاء يزيـدون عليهـا الآجر والجـص والأحجـار ...، والمقصـود إن هـؤلاء المعظميـن للقبـور محـادّون لمـا جاء به رسـول اللـه ﷺ مناقضـون لأمره، قـال أبو محمد المقدسـي: .. وتخصيـص القبـور بالصلاة عندها يشـبه تعظيم الأصنام بالسـجود لها، والتقرب لهـا، وقد روينا أن ابتداء عبـادة الأصنام تعظيم

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٩٤) بتصرف واختصار.

الأمـوات باتخـاذ صورها والتمسـح بهـا، والصـلاة عندها[١].أ.هـ.

وقـال أَيْضًـا: الـذي شـرعه الرسـول ﷺ عنـد زيـارة القبـور: إنما هـو تذكـر الآخـرة، والمـوت، والإحسـان إلـى المـزور، بالدعـاء لـه، والترحـم عليـه، والاسـتغفار لـه، وسـؤال العافيـة لـه، فيكـون الزائـر محسـنًا إلـى نفسـه، وإلـى الميـت، فقلـب هـؤلاء المشـركون الأمـر، وعكسـوا الديـن، وجعلوا المقصود بالزيارة الشـرك بالميـت، ودعاءه، والدعـاء به، وسـؤاله حوائجهـم، واسـتنزال البركات منـه، ونصره لهم علـى الأعـداء، فصـاروا مسـيئين إلـى نفوسـهم وإلـى الميـت ولـو لم يكـن إلا بحرمانـه بركـة مـا شـرعه الله تعالـى من الدعـاء لـه والترحم عليه والاسـتغفار له[٢].أ.هـ.

١- وأمـا النـوع الثالـث[٣]: فهـو توحيد الأسـماء والصفـات وقد ذكـره اللـه أَيْضًـا في كتابـه فقـال سُـبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾[٤] وقـال سـبحانه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[٥] وقـال سـبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ

(١) المصدر السابق (١/ ١٩٥-١٩٧) بتصرف واختصار.
(٢) المصدر السابق (١/ ١٩٨، ١٩٩).
(٣) من أنواع التوحيد.
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٨٠.
(٥) سورة الإخلاص الآيات: ١-٤.

سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1] وأثبت له صفة اليدين فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾[2] وأثبت له صفة الوجه كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[3] وأثبت له صفات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾[4] وقوله: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾[5] وقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[6] يعني: لا ينام، ولا ينعس، ولا ينبغي له أن ينام، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وكما في قوله سبحانه- في إثبات صفة الاستواء ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[7] وقال: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾[8] وقال ﷺ: «كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء»[9]، وهو سبحانه فوق الخلق كلهم، وكل الخلق علويّه وسفليّه بالنسبة إلى كرسي

---

(١) سورة الحشر الآيات: ٢٢-٢٤.
(٢) سورة المائدة الآية: ٦٤.
(٣) سورة الرحمن الآية: ٢٧.
(٤) سورة الأنعام الآية: ١٤٧.
(٥) سورة الأنعام الآية: ١٤.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٧) سورة طه الآية: ٥.
(٨) سورة هود الآية: ٧.
(٩) رواه ا لبخاري -الفتح- (١٣/ ٤٠٣).

الـرب عـز وجـل، كحلقـة ملقاة فـي فـلاة أو كسـبعة دراهـم ألقيت في ترس[١]، ﴿وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِـيُّ الْعَظِيـمُ﴾[٢] ﴿وَهُـوَ الْقَاهِـرُ فَـوْقَ عِبَـادِهِ﴾[٣]، ﴿أَأَمِنْتُـمْ مَـنْ فِي السَّـمَاءِ أَنْ يَخْسِـفَ بِكُـمُ الْأَرْضَ...﴾[٤]، وقالـت الجاريـة للرسـول ﷺ لمـا سـألها أيـن اللـه؟ قالت: فـي السـماء، قـال ﷺ: «اعتقهـا فإنها مؤمنـة»[٥]، فاللـه فـوق السـماء، أو في العلـو، وهو بكل شـيء محيط، فـإن فـوق السـماء السـابعة بحر ما بيـن أعلاه وأسـفله كما بين السـماء والأرض، والعـرش فوق الماء، والله سـبحانه على العرش اسـتوى[٦]، والعـرش أعظـم من الكرسـي، والكرسـي- وهـو موضع قدمـيْ الرب جـل وعـلا- أعظـم مـن السـموات والأرض ومـا فيهمـا ومـا بينهمـا، وأمـا العـرش فـلا يقدر قـدره إلا الله عـز وجل ولهـذا قال اللـه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع إلا كحلقة بأرض فلاة» رواه ابن مردويه - وذكر إسناده ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٩٣)، وفي رواية: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبع ألقيت في ترس»، رواه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٧، ٨) وانظر تخريجه في: النهج السديد: ٢٨١ وتخريج أحاديث منتقدة: ١٣٧.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٦١.

(٤) سورة الملك الآية: ١٦.

(٥) رواه مسلم (١/ ٣٨١-٣٨٢) ح٥٣٧.

(٦) روى معناه الدارمي عن ابن مسعود في الرد على الجهمية: ٢٦، ٢٧، وابن خزيمة في التوحيد (١٠٥، ١٠٦، ٣٧٦، ٣٧٧) وصححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية: ١٠٠، والذهبي في العلو: ٦٤، وانظر النهج السديد: ٢٨٢.

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١] والله يعجب ويضحك، والله يفرح، والله يغضب، والله يسخط، والله يغار، والقُرآن الكريم كلام الله، والله كلام موسى تكليمًا، واتخذ إبراهيم خليلًا، والله يستهزئ بالمستهزئين، ويكيد بالكائدين، ويخادع المخادعين، ويمكر بالماكرين.

قال العلامة سليمان بن عبد الله رحمه الله: «توحيد الأسماء والصفات هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سُبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، وهذا لا يكفي في حصول الإسلام، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه، من توحيد الربوبية والإلهية، واكفار يقرون بجنس هذا النوع من التوحيد، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك، إما جهلًا، وإما عنادًا، كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنزل الله فيهم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٢] قال ابن كثير: والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن.

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦٧.

(٢) سورة الرعد الآية: ٣٠.

قال الشاعر: وما يشاء الرحمن يعقد ويطلق.

وقال الآخر: ألا قضب الرحمن ربي يمينها[١].أ.هـ.

وقال العلامة سليمان أَيْضًا: ولم يعرف عنهم «يعني: عن أهل الجاهلية المشركين» إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة، ولو كان ينكرون شيء غير الرحمن لردوا على النبي ﷺ ذلك، كما ردّوا عليه توحيد الإلهية، فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[٢].أ.هـ[٣].

قال ابن القيم **رحمه الله**: «والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خالٍ عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفة الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزه عن الشبيه والمثال، ومنزه عما يضاد صفاته كماله: فمنزه عن الموت المضاد للحياة، وعن السنة والنوم والسهو والغفلة المضادة للقيومية، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء، موصوف بالعدل منزه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضدادهما من الصم والبكم، موصوف بالعلو

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (٣٤، ٣٥).

(٢) سورة ص الآية: ٥.

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد ٣٥.

والفوقيـة منـزه عـن أضـداد ذلـك، موصـوف بالغنى التـام منزه عمـا يضاده بوجه مـن الوجـوه، ومسـتحق للحمد كلـه»(١).

قـال أيضًـا: «فللـه العظيـم أعظـم حمـد وأتمـه وأكملـه علـى مـا منّ بـه مـن معرفتـه وتوحيـده، والإقـرار بصفاتـه العليـا وأسـمائه الحسـنى وإقـرار قلوبنـا بأنـه اللـه الـذي لا إلـه إلا هـو عالـم الغيـب والشـهادة رب العالميـن قيـوم السـموات والأرضيـن إلـه الأوليـن والآخريـن، ولا يـزال موصوفًـا بصفـات الجـلال، منعوتًـا بنعـوت الكمـال، منزهًا عـن أضدادها مـن النقائـص والتشـبيه والمثـال، فهـو الحـي القيـوم الـذي لكمـال حياتـه وقيوميتـه لا تأخـذه سـنة ولا نـوم، مالك السـموات والأرض الـذي لكمال ملكـه لا يشـفع عنـده أحـد إلا بإذنـه، العالم بكل شـيء الذي لكمـال علمه يعلـم مـا بين أيـدي الخلائـق ومـا خلفهم، فـلا تسـقط ورقـة إلا بعلمه ولا تتحـرك ذرة إلا بإذنـه، يعلـم دبيـب الخواطـر فـي القلـوب حيـث لا يطلـع عليهـا الملـك ويعلـم ما سـيكون منها حيـث لا يطلـع عليه القلـب، البصير الـذي لكمـال بصره يرى تفاصيـل خلق الـذرة الصغيرة وأعضائهـا ولحمها ودمهـا ومخهـا وعروقهـا، ويـرى دبيبهـا علـى الصخـرة الصماء فـي الليلة الظلمـاء، ويـرى مـا تحـت الأرضيـن السـبع كما يـرى مـا فوق السـموات السـبع، السـميع الذي قد اسـتوى في سمعه سـر القول وجهره، وسع سمعه الأصـوات فـلا تختلـف عليه أصـوات الخلـق ولا تشـتبه عليه، ولا يشـغله منها سـمع عن سـمع، ولا تغلطه المسـائل ولا يبرمـه كثرة السـائلين، قالت

(١) انظر: طريق الهجرتين: ١١٤، ١١٥.

عائشـة: الحمـد للـه الذي وسـع سـمعه الأصـوات، لقـد جـاءت المجادلة تشـكو إلـى رسـول اللـه وإنـي ليخفى علـيّ بعـض كلامهـا، فأنـزل الله عز وجـل: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾[1]، القديـر الـذي لكمال قدرته يهدي من يشـاء ويضـل من يشـاء ويجعـل المؤمـن مؤمنًا والكافـر كافـرًا والبر بـرًا والفاجر فاجـرًا، وهـو الـذي جعـل إبراهيـم وآلـه أئمـة يدعـون إليـه ويهـدون بأمره وجعـل فرعـون وقومـه أئمـة يدعـون إلـى النـار، ولكمـال قدرتـه لا يحيط أحـد بشـيء مـن علمـه إلا بما شـاء سـبحانه أن يعلمه إيـاه، ولكمـال قدرته خلـق السـموات والأرض ومـا بينهمـا فـي سـتة أيام وما مسـه مـن لغوب، ولا يعجـزه أحـد مـن خلقـه، ولا يفوتـه، بل هو فـي قبضتـه أين مـا كان ... ولكمّـال غنـاه اسـتحال إضافة الولـد والصاحبة والشـريك والشـفيع بدون إذنـه إليـه، ولكمـال عظمته وعلوه وسـع كرسـيه السـموات والأرض، ولم تسـعه أرضـه ولا سـمواته ولـم تحط بـه مخلوقاته، بـل هو العالـي على كل شـيء، وهـو بكل شـيء محيـط، ولا تنفـد كلماته ولا تبـدّل، ولـو أن البحر يمـده مـن بعده سـبعة أبحـر مـدادًا، وأشـجار الأرض أقلامًا، فكتـب بذلك المـداد، وبتلـك الأقـلام، لنفـد المـداد، وفنيت الأقـلام، ولـم تنفـد كلماته، وهـو سـبحانه يحـب رسـله وعبـاده المؤمنيـن، ويحبونـه، وهو سـبحانه له الحكمـة البالغـة فـي خلقـه وأمـره، ولـه النعمـة السـابغة على خلقـه، وكل نعمـة منـه عدل، وهو أرحـم بعباده مـن الوالدة بولدهـا، وأفـرح بتوبة عباده

(١) سورة المجادلة الآية:١.

مـن واجـد راحلتـه التـي عليهـا طعامـه وشـرابه فـي الأرض المهلكـة بعـد فقدهـا واليـأس منها، وهو سـبحانه لم يكلـف عباده إلا وسـعهم، وهو دون طاقتهـم، فقـد يطيقـون الشـيء ويضيـق عليهـم، بخـلاف وسـعهم فإنـه ما يسـعونه ويسـهل عليهم ويفضـل قدرهم عنه كما هـو الواقع، وهو سـبحانه لا يعاقـب أحـدًا على غير فعلـه، ولا يعاقبه على فعل غيـره، ولا يعاقبه بترك مـا لا يقـدر على فعلـه، ولا على فعـل ما لا قدرة لـه على تركـه، وأنه حكيم جـواد ماجـد محسـن ودود صبور شـكور يطاع فيشـكر، ويعصـى فيغفر، لا أحـد أصبـر علـى أذى سـمعه منـه، ولا أحـب إليـه المـدح منـه، ولا أحب إليـه العـذر منـه، ولا أحـد أحـب إليـه الإحسـان منـه، فهـو محسـن يحـب المحسـنين، شـكور يحـب الشـاكرين، جميل يحـب الجمـال، طيب يحب كل طيـب، نظيـف يحـب النظافـة[1]، عليـم يحب العلمـاء من عبـاده، كريم يحـب الكرمـاء، قـوي والمؤمـن القوي أحـب إليه مـن المؤمـن الضعيف، بـر يحـب الأبرار، عـدل يحب أهـل العـدل، حيي سـتير يحب أهـل الحياء والسـتر، عفـو غفـور يحب مـن يعفو عن عبـاده ويغفـر لهم، صـادق يحب الصادقيـن، رفيـق يحـب الرفـق، جـواد يحـب الجـود وأهله، رحيـم يحب الرحمـاء، وتر يحـب الوتر، ويحـب أسـماءه وصفاته ويحـب المتعبدين له بهـا، ويحـب من يسـأله ويدعـوه بهـا، ويحب مـن يعرفهـا ويعقلهـا، ويثني عليـه بهـا ويحمده ويمدحـه بهـا...[2] أ.هـ.

قلـت: وبالجملـة فتوحيد الأسـماء والصفـات هو أن تسـمي الله

(١) انظر: منهاج السنة (٥/ ٣١١، ٣١٣).

(٢) انظر: طريق الهجرتين: ١٢٧-١٢٩.

سُـبحانه بما سـمى به نفسه أو سـماه به رسـوله ﷺ وتصف الله سُبحانه بما وصف به نفسـه أو وصفه به رسـوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشـبيه ولا تمثيـل ولا تكييـف بـل تقـول: إن الله ليس كمثله شـيء وهـو السـميع البصيـر، فهو سـبحانه يسـمع دبيـب النملة، ويـرى نياط عروقهـا، فـي الليلـة الظلماء، علـى الصخـرة الصمـاء، ولا تخفى عليه خافيـة، يعلـم خائنة الأعيـن وما تخفي الصدور، وأسـماء الله سُـبحانه كثيرة لا تنحصر في التسـعة والتسـعين التي قال فيها ﷺ: «إن لله تسـعةً وتسـعينَ اسـمًا من أحصاها دخل الجنة»[(١)] بدليل قوله ﷺ: «أسـألك بـكل اسـمٍ سـميت بـه نفسـك أو أنزلته فـي كتابـك أو علمته أحـدًا من خلقـك أو اسـتأثرت به في علـم الغيب عنـدك ...» [(٢)] ولكن أسـماء اللـه توقيفية، تؤخذ مـن القُرآن، والسُـنة الصحيحة، فلا يسـمى الله إلا بمـا سـمى به نفسـه، أو سـماه رسـوله، كمـا لا يوصـف إلا بما وصف بـه نفسـه، أو وصفه به رسـوله، والأسـماء والصفات معناهـا معروف، وكيفيتها ليسـت معروفة، فالكيـف مجهول، والمعنـى معلوم، فنفوض إلـى الله كيفيتهـا، وأما معناها فنعلمـه، فاليدان حقيقتـان على ظاهرها، ومعناهـا معلـوم، ولكـن كيفيتهـا نجهلهـا، واعلـم يـا عبد اللـه: أن كل كيفيـة تصورتهـا فاللـه بخلافهـا، وأنـه ليـس كمثلـه شـيء، فـلا يماثله شـيء، فأثبـت يـا عبـد الله للـه سـبحانه ما أثبتـه لنفسـه، وأنـف عنه ما

---

(١) رواه البخاري - الفتح - (١٣/ ٣٧٧).

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٩١) وصححه ابن القيم في بدائع الفوائد (١/ ١٨٨)، وحسنه الحافظ في تخريج الأذكار - كما في الفتوحات الربانية - (٤/ ١٣).

نفـاه عن نفسـه، من الولـد، والصاحبة، والشـريك، والسـمي، والنظير، والنـوم، والنعـاس، والعجـز، واللغـوب، والفقـر، والظلـم، ومشـابهة المخلوقيـن. فـلا تقـل: يتعشـى عندكـم الرحمـن، ولا تقل: خـان الله مـن يخـون، لأن ذلك مـن الإلحـاد والافتراء علـى الله سـبحانه، وكذا لا تقـل: وجـه اللـه عليـك، فـإن هـذا الـكلام إن كان علـى ظاهـره فلا يجـوز وإن أراد بـه السـؤال بوجـه اللـه فلا يجـوز أيضًا أن يسـأل بوجه اللـه إلا الجنة.

والطوائـف التـي ضلّـت فـي هـذا النـوع مـن التوحيـد كثيـرة من أهمهـا: الجهمية والمعتزلة والأشـاعرة والماتوريديـة وغيرهم، فمنهم مـن عطّـل، ومنهـم من حـرّف، ومنهـم من بـدّل، ومنهـم من شـبّه الله بخلقـه، ومـن شـبّه اللـه بخلقه فقـد كفر، نسـأل اللـه العافية.

١ قـال العلامـة سـليمان بن عبد الله: الشـرك في توحيد الأسـماء والصفات نوعان:

أحدهمـا: تشـبيه الخالـق بالمخلـوق، كمـن يقـول: يـد الخالـق كيـدي، وسـمعه كسـمعي، وبصـره كبصـري، واسـتواءه كاسـتوائي، وهـو شـرك المشـبهة.

الثانـي: اشـتقاق أسـماء للآلهـة الباطلـة من أسـماء الإلـه الحق، قـال اللـه تعالـى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]، قـال: ابـن عبـاس: يلحـدون فـي أسـمائه: يشـركون، وعنـه: سـموا الـلات مـن

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٨٠.

الإلـه، والعـزى مـن العزيز([1]).أ.هــ.

١- والمهم أن التوحيد ثلاثة أقسام كلها في القُرآن:

- توحيد الربوبية.

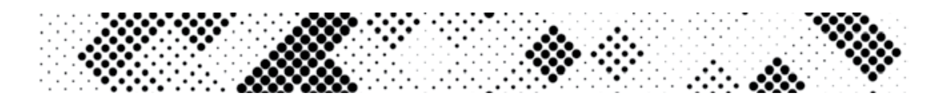
- والألوهية.

- والأسماء والصفات.

وهـذا التوحيـد له نواقـض، فنواقض الإسـلام نواقـض للتوحيد، مـن الكفـر الأكبـر، والنفـاق الاعتقـادي، والشـرك الأكبر، فـكل ذلك مـن الـردّة عـن الإسـلام، ومحبـط للتوحيـد، ومخـرج من الملـة، ولو صلّـى صاحـب هـذه النواقـض، ولـو صـام، ولـو زعـم أنه مسـلم فلا ينفعـه عمـل، ولا قـول، مـع الكفـر، والشـرك، والنفـاق. نسـأل اللـه العفـو والعافيـة فـي الدنيـا والآخرة.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد: ٤٤ بتصرف واختصار.



## أقسام الموحدين

وأما أقسام الموحّدين فهي مذكورة أيضًا في القُرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾[١] الآية، فالموحدون ثلاثة أقسام «وكلهم في الجنة» كما جاء عن عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وعائشة، وأبي الدرداء، وأسامة بن زيد، والبراء بن عازب، وعثمان بن عفان، وغيرهم رضي الله عنهم[٢] وهذا ترجيح ابن جرير الطبري[٣] وابن قيم الجوزية[٤] وابن كثير[٥] والسعدي[٦] والشنقيطي[٧]. وقال عمر رضي الله عنه: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»[٨]، قال العلامة الشنقيطي: «أرجى آيات القُرآن العظيم هذه الآية الكريمة فقد بيّن الله فيها إيراث هذه

(١) سورة فاطر الآيتان: ٣٢-٣٣.
(٢) ذكره ابن قيم الجوزية عنهم - انظر: طريق الهجرتين: ١٨٧-١٨٩ و٢٠١-٢٠٣.
(٣) انظر: جامع البيان للطبري (١٢/ ١٣٦)
(٤) طريق الهجرتين ١٩٨.
(٥) تفسير القُرآن العظيم (٣/ ٥٥٤، ٥٥٥).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٢٠)، وفوائد قرآنية له: ص٦ فما بعدها.
(٧) أضواء البيان (٤/ ٨٤).
(٨) رواه ابن مردويه -ذكره ابن القيّم في طريق الهجرتين-:٢٠١.

الأمة لهذا الكتاب وهذا دليل على أن الله اصطفاها»[١] أ.هـ.

قال ابن تيمية: «فقد قَسَّمَ سُبحانه الأمة التي أورثها الكتاب واصطفاها «ثلاثة أصناف»: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل: الإسلام، والإيمان، والإحسان... ومعلوم أن الظالم لنفسه إن أريد به من اجتنب الكبائر والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد أو سابق، فإنه ليس أحد من بني آدم يخلو عن ذنب، لكن من تاب كان مقتصدًا، أو سابقًا، كذلك من اجتنب الكبائر كفرت عنه السيئات ... فلا بد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا.أ.هـ[٢].

وقال ابن القيم: الله سبحانه سمى الكل «مصطفين» وأخبر أنه اصطفاهم من جملة العباد، ومحال أن يكون الكافر والمشرك من المصطفين، لأن الاصطفاء هو الاختيار فهؤلاء الثلاثة هم صفوة الخلق، وبعضهم خير من بعض، فسابقهم مصطفى عليهم، ثم مقتصدهم مصطفى على ظالمهم، ثم ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك[٣]... وظلم النفس نوعان: نوع لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والصديقية والاصطفاء: وهو ظلمها بالشرك،

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٨٤). وانظر لمزيد من الفائدة، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للعلامة ابن باز (١١/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨٥).

(٣) طريق الهجرتين ص١٨٨.

ونـوع يبقـى معـه حظه مـن الإيمـان والاصطفـاء والولاية وهـو ظلمها بالمعاصـي، وهو درجـات متفاوتة في القدر والوصـف، فهذا التفصيل يكشـف قناع المسـألة ويزيل إشـكالها، بحمد الله[١]. أ.هـ.

وقـال أيضًـا: فـي معـرض كلامـه على آيـة فاطـر المذكـورة آنفًا: وهـذا التقسـيم أخـص مـن التقسـيم المذكـور فـي سـورة الواقعـة والإنسـان والمطففيـن، فـإن ذلـك تقسـيم للنـاس إلى شـقي وسـعيد، وتقسـيم السـعداء إلـى أبـرار ومقربيـن، وتلك القسـمة خاليـة من ذكر العاصـي لنفسـه، وأمـا هـذه الآيـات ففيهـا تقسـيم الأمـة إلى محسـن ومسـيء، فالمسـيء الظالم لنفسـه، والمحسـن نوعان: مقتصد وسابق بالخيـرات، فـإن الظالميـن لأنفسـهم هـم أغلب أقسـام الأمـة، فكيف يخلـوا القُـرآن مـن ذكرهـم وبيـان حكمهـم، ثـم لمـا اسـتوفى أقسـام الأمـة ذكـر الخارجيـن عنهم، وهـم الذين كفـروا، فعمّت هـذه الآيات أقسـام الخلـق كلهم[٢]. أ.هـ.

وقـال أيضًـا: قـد ذكـر اللـه فـي سـورة الإنسـان جـزاء الأبـرار، منبهًـا علـى مـا هو أعلـى وأجل منـه، وهـو جـزاء المقربين السـابقين، ليـدلّ على أن هـذا إذا كان جزاء للأبـرار المقتصدين، فمـا الظن بجزاء المقربين السـابقين!!، وذكر عز وجل -في سـورة الإنسـان- الأسـاور مـن الفضـة، والأكواب مـن الفضة فـي جزاء الأبـرار، وذكر في سـورة

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق: ١٩٧، قال ابن تيمية: «أهل الجنة نوعان: سابقون مقربون، وأبرار أصحاب يمين». انظر: الاستقامة (٢/ ١١١).

الملائكـة الأسـاور مـن الذهـب في جـزاء السـابقين بالخيـرات، فعلم جـزاء المقتصديـن مـن سـورة الإنسـان، وعلـم جـزاء السـابقين مـن سـورة الملائكة[١].أ.هـ.

وقال الشـنقيطي: الـواو في (يدخلونها) شـاملة للظالم والمقتصد والسـابق علـى التحقيـق، ولذا قـال بعض أهـل العلم: حق لهـذه الواو أن تكتـب بمـاء العينيـن، فوعده الصـادق بجنات عدن لجميع الأقسـام مـن هـذه الأمـة، وأولهـم الظالـم لنفسـه، يـدل علـى أن هـذه الآية من أرجـى آيـات القُـرآن، ولـم يبـق مـن المسـلمين أحـد خارج عـن أحد هـذه الأقسـام الثلاثة، فالوعـد الصادق بالجنـة في الآية شـامل لجميع المسـلمين، ولهـذا قـال بعدهـا متصـلًا بهـا ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ إلـى قولـه: ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[٢] أ.هـ.

وقـال أيضًـا: وسـبب تقديـم الظالـم فـي الوعـد بالجنـة علـى المقتصـد: لئـلا يقنـط مـن رحمـة اللـه، وأخـر السـابق: لئـلا يعجـب بعملـه فيحبـط، وكـذا قـدّم الظالـم لأن أكثـر أهـل الجنـة الظالمـون لأنفسـهم لأن الـذي لـم تقـع منهـم معصية أقـل مـن غيرهـم[٣]. أ.هـ.

وقـال العلامـة ابـن سـعدي: فـي قولـه تعالـى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾[٤]، اشـترك هـؤلاء

(١) المصدر السابق: ٢٠٠-٢٠١.
(٢) أضواء البيان (٤/ ٨٥).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٨٥) بتصرف.
(٤) سورة فاطر الآية: ٣٢.

الثلاثـة فـي أصـل الإيمـان، وفـي اختيـار اللـه لهـم مـن بيـن الخليقة، وفـي أنـه منّ عليهـم بالكتاب، وفي دخـول الجنة، وافترقـوا في تكميل مراتـب الإيمـان، وفـي مقـدار الاصطفاء مـن اللـه، وميـراث الكتاب، وفـي منـازل الجنـة ودرجاتهـا، بحسـب أوصافهـم[١]. أ.هـ.

وقـال أيضًـا: فـي قولـه تعالـى: ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ راجـع إلـى السـابق بالخيـرات لئلا يغتـر بعمله، بل ما سـبق إلى الخيـرات إلا بتوفيـق اللـه تعالـى ومعونتـه فينبغـي لـه أن يشـتغل بذكر اللـه تعالـى على مـا أنعـم بـه عليه[٢]. أ.هـ.

وقـال ابـن جرير الطبـري: أمـا الظالـم لنفسـه: فإنـه لأن يكون من أهـل الذنوب والمعاصـي التي هي دون النفاق والشـرك عندي- أشـبه بمعنـى الآيـة مـن أن يكـون المنافـق أو الكافر، وذلـك لأن اللـه تعالى أتبـع هذه الآيـة قولـه: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ بدخـول الجنة جميع الأصنـاف الثلاثـة، وليـس فـي الآيـة خبـر أن الظالميـن لأنفسـهم لا يدخلـون النـار، وإنمـا فيها إخبـار من اللـه تعالى أنهم يدخلـون جنات عـدن، وجائـز أن يدخلها الظالم لنفسـه بعـد عقوبة الله إيـاه على ذنوبه التـي أصابهـا فـي الدنيـا، وظلمـه نفسـه فيهـا بالنـار، أو بمـا شـاء مـن عقابـه، ثـم يدخلـه الجنـة فيكون ممـن عمّه خبر اللـه جل ثنـاؤه بقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾[٣]. أ.هـ.

---

(١) فوائد قُرآنية لابن سعدي: ٦٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٢٠).

(٣) جامع البيان (١٢/ ١٣٦، ١٣٧) بتصرف واختصار.

**فائدة:**

قـال العلامـة ابـن بـاز فـي مجمـوع فتـاوى ومقـالات متنوعة له (١١/ ٣٨٢، ٣٨٣):

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾: وَهُوَ صاحب المعاصي.

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾: وَهُـوَ البـر الَّـذِي حافـظ عَلَـى الفرائـض وتـرك المحـارم.

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾: وَهُـوَ الَّـذِي اجتهـد فـي الطاعـات (النَّافِلَـة مـع الفرائـض) وَهُـوَ الأعلـى فـي المرتبـة، والمقتصـد فـي المرتبة الوسـطى، وَأَمَّا الظالم لنفسـه فهـو في المرتبـة الدُّنْيَا، فالعاصي تَحْـتَ مشـيئة اللـه، إذا مـات عَلَى ظلمـه لنفسـه بالمعاصي فهـو تَحْتَ المشـيئة إِنْ شَـاءَ اللـهُ غفـر لـه وإن شـاء عذبـه، وَمَتَـى دخـل النَّـار لـم يخلـد فيهـا، بل يعـذب عَلَى قـدر معاصيـه ثُمَّ يخـرج منهـا، ولا يخلد فـي النَّـار إِلَّا الكفـرة، نسـأل اللـه العافية.

إذًا فالقسـم الأول مـن أقسـام الموحديـن هـو الظالم لنفسـه، قال اللـه فيـه: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أي: من هؤلاء الذيـن اصطفينا من عبادنـا مـن يظلـم نفسـه بركوبـه المآثـم واجترامـه المعاصـي واقترافه الفواحـش[١]، فإن الظالم لنفسـه هـو المفرِّط في فعل بعـض الواجبات المرتكـب لبعض المحرمـات[٢]، أو هو الـذي يطيع اللـه ولكن يعصيه

(١) انظر: جامع البيان للطبري (١٢/ ١٣٧).
(٢) انظر: تفسير القُرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٥٥٤).

أيضًا[1] أو هو الذي ظلم نفسه بالمعاصي التي دون الكفر[2]، أو هو الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا وترك من واجبات الإيمان ما لا يزول معه الإيمان بالكلية[3]، وهم أهل الكبائر من الموّحدين الذين لم يشركوا، ولم يكفروا، ولم ينافقوا، ولم يستحلوا الكبيرة، فهم تحت المشيئة، وقد شاء الله سبحانه أن مآلهم إلى الخلود في الجنة، ولا يعني ذلك أنهم لا يعذبون في قبورهم، كما لا يعني أنهم لا يدخلون النار، بل قد يعذبون في قبورهم، كما مرّ النبي ﷺ على قبرين فقال: «إنما ليعذبان وما يعذبان في كبير ثم قال: بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من بوله» أو قال: «لا يستتر من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة»[4]، وقد يعذبون في النار ولكن لا يخلدون فيها بل يخرجون بالشفاعة كما قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[5]. وقد يعفو الله عنهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[6] وكما قال تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾[7].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٤/ ٨٤).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٢٠).

(٣) فوائد قُرآنية لأبي سعدي: ٦٠.

(٤) رواه البخاري - الفتح - (١/ ٣١٧).

(٥) رواه أبو داود (٥/ ١٠٦) ح رقم ٤٧٣٩ وصحح إسناده الألباني في مشكاة المصابيح (م/ ١٥٥٨) ح رقم ٥٥٩٨ و٥٥٩ وفي صحيح الجامع (١/ ٦٩١) ح رقم ٣٧١٤.

(٦) سورة النساء الآية: ٤٨.

(٧) سور النساء الآية: ٣١.

لذا فإن اجتناب الكبائر سبب لتكفير الصغائر، وهذا من فضل الله علينا حيث إنه عفو يحب العفو، ولذلك يعفو عن كثير مما كسبت أيدينا، قال الله سُبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(١).

وضابط الصغيرة: كل ذنب ليس فيه حد في الدنيا ولا وعيد(٢) في الآخرة أو هي ما دون الحدّين: حد الدنيا وحد الآخرة، أو هي: كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار، أو هي الذنوب والمعاصي التي لا تدخل تحت تعريف الكبائر(٣).

وأما الكبائر: فهي كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو سخط أو نار، أو ترتب عليه حد في الدنيا، أو نفي إيمان، أو توعد عليه بعذاب في القبر، أو في النار يوم القيامة، أو توعد صاحبه بأنه لا يدخل الجنة، أو لا يشم رائحة الجنة، أو قال فيه ﷺ: «ليس منا من فعل كذا، أو تبرأ منه ﷺ، وما سوى ذلك فهو من الصغائر»(٤).

---

(١) سورة الشورى الآية: ٣٠.

(٢) قال شارح الطحاوية: «المراد بالوعيد: الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب، فإن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا - أعني المقدرة • فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب» أ.هـ. انظر: شرح الطحاوية: ٣٦١.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) وهو القول المأثور عن السلف، ذكره «ابن تيمية» واختاره، كما في مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠ فما بعدها) وأيضاً في (١١/ ٦٥٨) من مجموع الفتاوى، وعرفها بعض العلماء بقوله: «إنها ما يترتب عليها حد في الدنيا أو توعد عليها بالنار، أو اللعنة أو الغضب». قال شارح الطحاوية: «وهذا أمثل الأقوال، وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره، فإنه يدخل تحته كل ما يثبت بالنص أنه كبيرة كالشرك، والقتل، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ونحو ذلك،

والكبائـر بعضهـا أكبـر مـن بعـض، فبعضهـا يخـرج مـن الملـة، كالشـرك الأكبـر، والكفـر الأكبـر، والنفـاق الاعتقـادي، وبعضهـا لا يخـرج من الملـة: كالزنا، والقتل، وشـرب الخمر، والسـرقة، والنميمة إذا لـم يسـتحل شـيئًا من ذلـك[١].

والصغائـر مثـل تقبيل الأجنبيـة، أو النظر إلى ما حـرم الله[٢]، قال العلامـة ابن عثيميـن: «ولا تكون الصغيـرة كبيرة بمجـرد المجاهرة إلا إذا علـم مـن الشـخص المعيّـن أنـه أراد المعانـدة، فهنـا تكـون كبيـرة لمـا قـام فـي قلبـه مـن معانـدة اللـه ورسـوله، أمـا تـرك السـنن وفعـل المكروهـات فـلا يخـرج الإنسـان مـن العدالـة، مـا دام أن تعظيـم الله ورسـوله قائـم فـي قلبـه، وترك السـنن ولـو كثـرت لا يوجب الفسـق، وفعـل المكروهـات ولـو كثـرت لا يوجـب الفسـق، بخـلاف الكبائـر فبمجـرد مـا يفعلها الإنسـان فإنه يفسـق ويخـرج مـن العدالة[٣]».أ.هـ.

وقـال العلامـة ابـن أبـي العـز الحنفـي: «إن الكبيـرة قـد يقتـرن بهـا مـن الحيـاء والخـوف والاسـتعظام لهـا مـا يلحقهـا بالصغائـر،

---

كالفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، وأمثال ذلك «ثم ذكر أوجه الترجيح لهذا القول: انظر: شرح الطحاوية: ٣٦١، ٣٦٢، وانظر كذلك: الاستقامة (١/ ٣٤٨، ٣٥١).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٩).

(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (٣/ ٨١).

(٣) هذا معنى جواب شيخنا العلامة «ابن عثيمين» على سؤال سألتهُ إياه عن تعريف الصغيرة، ومتى تعطى حكم الكبيرة، وهل ترك السنن وفعل المكروهات يؤدي إلى أن تكون كبيرة ويفسق صاحبها أو لا؟! وهو محفوظ عندي في شريط.

وقـد يقتـرن بالصغيـرة مـن قلة الحيـاء وعـدم المبـالاة وتـرك الخوف والاستهانة بهـا مـا يلحقهـا بالكبائـر، وهـذا أمـر مرجعـه إلى مـا يقوم بالقلـب، وهـو قـدر زائـد على مجـرد الفعـل، والإنسـان يعـرف ذلك من نفسـه» أ.هـ[١].

قلـت: ولكـن لا بـد أن نعرف إن الذنـوب خطرها عظيـم كما قال ﷺ: «إياكـم ومحقـرات الذنـوب فإنهن مـن يجتمعن عليـه يهلكنه»[٢]، فـلا تنظـر إلـى صغـر المعصيـة، ولكن انظـر إلـى عظمة مـن عصيت، فـإن الـذي عصيتـه هـو الخالـق العظيـم، رب العالميـن، الـذي قلوب العبـاد بيـن أصبعيـن مـن أصابعه، مـن شـاء أقامه ومن شـاء أزاغـه[٣]، نسـأل اللـه سُـبحانه مقلـب القلـوب أن لا يزيـغ قلوبنـا بعـد إذ هدانـا، وأن يثبـت قلوبنـا علـى طاعته، إنه سـميع قريب مجيـب الدعوات، فلا بـد يـا أخـي المسـلم أن نخـاف من اللـه عـز وجـل، ونتذكر قـول الله سُـبحانه: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[٤].

---

(١) انظر: شرح الطحاوية: ٣٠٨.

(٢) روى البخاري عن أنس ﷺ قال: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ الموبقات»، انظر: فتح الباري (١١/ ٣٢٩)- كتاب الرقائق برقم (٦٤٩٢).

(٣) معنى حديث رواه الإمام أحمد في مسند (١/ ٤٠٢)، (٥/ ٣٣١)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦١) برقم ١٠٥٠٠ وانظر مجموع الزوائد - كتاب التوبة - (١٠/ ١٨٩). وانظر كلامًا عجيبًا عن ظلمة المعصية في الاستقامة (١/ ٣٥١).

(٤) سورة النور الآية: ٦٣.

الفتنـة: الشـرك، ولعلّه أن يردّ شـيئًا مـن أمر الله ورسـوله فيقع في قلبـه فتنـة لـه فيهلـك، والعيـاذ باللـه! ولهـذا حذرنـا الله عـز وجل من الذنـوب، وأخبرنا أنها سـبب للرين علـى القلوب، فقـال تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[1]، وقـال سُـبحانه ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[2]، فالذنـوب سـبب للـران والزيغ، عيـاذًا باللـه من ذلك، فيجـب على العبـد أن يحذر من الذنـوب كبيرها وصغيرهـا، فيقلـع عنهـا، ويتوب منهـا، ويندم علـى فعلهـا، كما يتوب مـن الشـرك الأكبـر والأصغـر، فـإن الشـرك أعظـم ذنـب عصـي اللـه بـه، وهـو ظلـم عظيـم، كما قـال اللـه تعالـى فـي قصة لقمـان ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾[3] فالحـذر الحـذر، والنجـاة النجـاة، قبـل أن يغضـب اللـه سـبحانه، وخشـية مـن إزاغـة القلـب، وخوفًـا مـن العقوبـة الشـديدة -﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾[4]- فـلا تقـع فـي الذنـب يا عبـد الله ولـو كان صغيرًا، ولا تصـرّ عليـه إذا وقعـت فيـه، ولا تجاهـر بالمعصيـة، ولا تسـتخف بهـا، ولا تعانـد، حتـى لا تكـون مـن المتكبريـن فـي ردّ الحـق وعـدم قبولـه[5]، ولـو كان الذنـب مـن الصغائـر، خشـية مـن أن يُعطـي حكـم

(١) سورة المطففين الآية: ١٤.
(٢) سورة الصف الآية: ٥.
(٣) سورة لقمان الآية: ١٣.
(٤) سورة الشعراء الآيتان: ٨٨-٨٩.
(٥) صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» رواه مسلم في صحيحه (١/ ٩٣)، كتاب الإيمان برقم ١٤٧ (٩١).

الكبيـرة لذلـك، ولهـذا صح عـن النبـي ﷺ أنـه قـال: «تعـرض الفتـن علـى القلـوب كالحصير عـودًا عودًا فـأيُّ قلب أُشـرِبَها نُكِتَ فيـه نُكْتَةُ سَـوْداءُ، وأيُّ قلـب أنكرهـا نُكِـتَ فيـه نُكْتَـةُ بيضـاءُ، حتـى تصيـر على قلبيـن، علـى أبيـض مِثْلِ الصّفـا، فلا تضـره فتنة مـا دامت السـموات والأرض، والآخرُ أسْـودُ مُرْبـادًا كالكُوز مُجَخيًا، لا يعْـرِفُ معروفًا ولا ينكـر منكـرًا إلا ما أُشـربَ مـن هـواه»[1] الحديث.

فعلـى العبـد أن يكون راجيًـا رحمة ربـه، خائفًا من عذابـه، وعليه أن لا يأمـن مكـر اللـه، فإنه لا يأمن مكـر الله إلا القوم الخاسـرون، ولا ييـأس مـن روح اللـه، فإنه لا ييـأس من روح اللـه إلا القـوم الكافرون، ولا يقنـط مـن رحمـة ربـه، فإنـه لا يقنط مـن رحمـة ربـه إلا الضالّون، وذلـك على حـدّ قولـه تعالـى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾[2]، «قالـت عائشـة رضـي الله عنهـا: أهم الذيـن يزنون، ويسـرقون، ويشـربون الخمـر، يـا رسـول اللـه؟ قـال: «لا، ولكـن هم الذيـن يصلـون، ويصومـون، ويتصدقـون، ويخافـون أن لا يتقبـل الله منهـم»[3]، ولهـذا فلا يتقبـل الله إلا مـن المتقين، قال الحسـن البصري رحمـه اللـه: «عملـوا –واللـه– بالطاعات واجتهـدوا فيهـا، وخافوا أن تـرد عليهـم، إن المؤمـن جمع إحسـانًا وخشـية، والمنافق جمع إسـاءة

(١) روه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨)، كتاب الإيمان برقم ٢٣١(١٤٤).
(٢) سورة المؤمنون الآية: ٦٠.
(٣) معنى حديث رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٣٠٦) برقم ٣١٧٥ كتاب تفسير القُرآن، ورواه أحمد في مسنده، انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٨).

وأمنًا». أ.هـ[١].

وقد مدح الله سُبحانه الذين يدعونه رغبًا ورهبًا، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾[٢].

قال شارح الطحاوية: «الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، أو رجل أذنب ذنبًا ثم تاب منه إلى الله، فهو راجٍ لمغفرته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]، أما إذا كان الرجل متماديًا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب ... فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى، فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه ... وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»[٤]، وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول

(١) انظر: شرح الطحاوية: ٣٠٦.
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٩٠.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢١٨.
(٤) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٩١)، وانظر: تهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٢٢)، واتحاف المهرة (٦٤٦/١٣) برقم ١٧٢٤٨.

الله عـز وجـل: «لا يموتـن أحدكـم إلا وهـو يحسـن الظـن بربـه»[١]، ولهـذا قيـل: إن العبـد ينبغـي أن يكـون رجـاؤه فـي مرضـه أرجـح من خوفـه، بخـلاف زمـن الصحـة، فإنـه يكـون خوفه أرجـح مـن رجائه، وقـال بعضهـم: مـن عبـد الله بالحـب وحـده فهـو زنديق، ومـن عبده بالخـوف فهـو حـروري، ومن عبـده بالرجاء وحـده فهو مرجـئ، ومن عبـده بالحـب والخـوف والرجاء فهـو مؤمـن موحد»[٢].أ.هـ.

ولـذا يجـب علـى كل مسـلم ومسـلمة أن يحـذر من الشـرك كلّه كبيـره وصغيـره، ومـن المعاصـي والذنـوب كلّهـا كبيرهـا وصغيرهـا، حتـى يكـون مـن المقربيـن عنـد ربّ العالميـن، ولكـي يكـون مـن الشـهداء والشـفعاء يـوم القيامة[٣]، نسـأل اللـه سـبحانه أن يوفقنا لكل خيـر، وأن يباعدنـا عـن كل شـر، اللهـم يـا مقلـب القلوب ثبـت قلوبنا علـى دينـك، ويـا مصـرف القلوب صـرف قلوبنا علـى طاعتـك، والله سُـبحانه أعلم.

قـال ابـن القيـم: إن الذنـوب والمعاصـي لا تنافـي الإيمـان بالرسـل وإن قدحـت في كمالـه، فيجتمع فـي العبد الإسـلام والإيمان والذنـوب والمعاصـي، فيكـون فيـه هـذا وهـذا، ثـم إن الذنـوب تغفر بالتوبـة النصـوح، فلـو بلغت عنان السـماء وعـدد الرمـل والحصى ثم

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٠٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها برقم ٢٨٧٧.

(٢) انظر: شرح الطحاوية: ٣١٢، ٣١٣، جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ١١٢)، «رسالة في تحقيق الشكر».

(٣) صح عن رسول الله ﷺ من رواية أبي الدرداء ؓ أنه قال: «لا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة» رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٦) كتاب البر والصلة برقم ٢٥٩٨.

تـاب منهـا تاب اللـه عليه، فالتوبـة تجب مـا قبلها، والتائـب من الذنب كمـا لا ذنـب له، والتوحيـد يكفر الذنـوب، كما في الحديـث الصحيح الإلهـي: «ابن آدم لـو لقيتني بقـراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشـرك بي شـيئًا لقيتـك بقرابها مغفـرة»[١]، فالمسـلمون ذنوبهم ذنـوب موحّد إن قـوي التوحيد علـى محو آثارها بالكلية، وإلا فمـا معهم من التوحيد يخرجهـم مـن النـار إن عذبـوا بذنوبهـم، وأمـا المشـركون والكفـار فـإن شـركهم وكفرهـم يحبـط حسـناتهم، فـلا يلقـون ربهـم بحسـنة يرجـون بهـا النجـاة، ولا يغفر لهم شـيء مـن ذنوبهم، فالذنـوب تزول آثارهـا بالتوبـة النصـوح، والتوحيـد الخالـص، والحسـنات الماحيـة، والمصائـب المكفـرة لها، وشـفاعة الشـافعين مـن الموحّديـن، وآخر ذلـك إذا عـذب بمـا يبقـى عليـه منهـا أخرجـه توحيده مـن النـار، وأما الشـرك باللـه والكفـر بالرسـول فإنه يحبـط جميع الحسـنات بحيث لا تبقى معه حسـنة[٢].أ.هـ.

وقـال ابـن تيمية: «مـن أتى هـذا الفواحـش معتقـدًا تحريمها فهو مـن المسـلمين الـذي قـال فيهـم رسـول اللـه ﷺ فـي حديث أبـي ذر: «مـن مـات لا يشـرك باللـه شـيئًا دخل الجنـة، وإن زنـا وإن سـرق»[٣]، فـإن المسـلم الـذي يأتـي بهـذه الفواحـش إمـا أن يتـوب إلـى اللـه

(١) تقدم تخريجه ص٢٠.
(٢) انظر: هداية الحيارى في أجوبة النصارى لابن القيم: ١٣٢، ١٣٣ بتصرف.
(٣) رواه البخاري- انظر: فتح الباري: برقم ١٢٣٧، ١٤٠٨، ٢٣٨٨، ٣٢٢٢، ٥٨٢٧، ٦٢٦٨، ٦٤٤٣، ٧٤٨٧، رواه مسلم (٢/ ٦٨٨-٦٨٩).

ويسـتغفره ... والمسـلم إذا أتـى الفاحشـة لا يكفـر وإن كان كمـال الإيمـان الواجـب قـد زال عنـه ... فأصـل الإيمـان معه، وهو قـد يعود إلـى المعصيـة، ولكنـه يكـون مؤمنًـا إذا فارق الدنيـا ... وذلـك أن معه أصـل الاعتقـاد: أن اللـه حـرم ذلـك، ومعه خشـية عقاب اللـه، ورجاء رحمتـه، وإيمانـه بـأن اللـه يغفـر الذنـب ويأخـذ بـه، فيغفـر اللـه له به ... وكذلـك مـن أفضـل أعمـال المؤمـن التوبـة ... وهذا باب واسـع، فـإن الذنـوب التـي يبتلى بهـا العباد يسـقط عذابهـا، إما بتوبـة تجب ما قبلهـا، وإمـا باسـتغفار، وإمـا بحسـنات يذهبـن السـيئات، وإمـا بدعاء المسـلمين وشـفاعتهم، أو بمـا يفعلونه له مـن البر، وإما بشـفاعة النبي ﷺ وغيـره فيـه يـوم القيامـة، وإمـا أن يكفـر الله خطايـاه بمـا يصيبه من المصائـب ... وأصنـاف الحسـنات التي تكفـر بها السـيئات كثيرة أكثر مـن السـيئات، مـن أنواع البـر جميعهـا، كما جـاء ذلك فـي الأحاديث النبويـة المطابقـة لكتـاب اللـه تعالـى ... فأمـا اسـتحلال ما حـرّم الله ورسـوله مـن الفواحـش وغيرهـا فهـو كفـر، وبمثلـه أهلـك اللـه قـوم لـوط الذين اسـتحلوا الفاحشـة وفعلوها معلنيـن بها مسـتحلين لها ... فـإن الفقيـه كل الفقيـه لا يؤيـس النـاس مـن رحمـة اللـه، ولا يجرئهم علـى معاصـي اللـه، واسـتحلال المحرمات كفـر، واليأس مـن رحمة اللـه كفر»[١].أ.هــ. ملخصًا.

وقـال شـارح الطحاويـة: (قد يعفـى لصاحـب الإحسـان العظيم

(١) انظر: الاستقامة لابن تيمية (٢/ ١٧٩، ١٩٠) باختصار.

ما لا يعفى لغيره، فإن فاعل السيئات تسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسُنة:

السبب الأول: التوبة.

الثاني: الاستغفار.

الثالث: الحسنات.

الرابع: المصائب الدنيوية.

الخامس: عذاب القبر.

السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم له في الحياة وبعد الممات.

السابع: أهوال يوم القيامة وشدائده.

الثامن: ما ثبت في الصحيحين «أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة».

التاسع: شفاعة الشافعين.

العاشر: عفو أرحم الرحمين من غير شفاعة)[1].

فائدة: قلت: من تَابَ تَابَ الله عليه من جميع ذنوبه، كبيرها وصغيرها مهما كانت ذنوبه من الشرك أو الكفر أو المعاصي، قال

---

(١) انظر: شرح الطحاوية: ٣٠٨-٣١١، ولابن تيمية كلاماً نحو هذا، انظره في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٥٤، ٢٨٧)، و(٧/ ٤٨٧-٥٠١)، وفي منهاج السنة (٦/ ٢٠٥، ٢٣٨).

تعالـى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[١].

فـإذا تـاب العبـد توبـة نصوحًا: بـدل الله سـيئاته حسـنات، وغفر لـه ما قد سـلف من الذنـوب والمعاصي، بـل إن حسـناته -التي عملها وقـت كفـره وردته- لا تحبط بعد إسـلامه بـل تكتب له ويعطـى ثوابها فـلا يحبـط عمله إلا بشـيئين: المـوت وهو كافر، فـإذا أسـلم قبل موته فـلا يحبط عملـه الصالح قـال تعالـى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٢]، ولمـا سـأل حكيـم بـن حـزام رضي الله عنه رسـول اللـه ﷺ عـن أعمال صالحـة، كان يعملها فـي الجاهلية، من صدقـة أو عتاقـة أو صلـة رحـم، وقـد أعتـق فـي الجاهليـة مائـة عبـد، وحمـل علـى مائـة بعيـر، فسـأل الرسـول ﷺ هـل لـه فـي ذلـك أجر؟ فقـال الرسـول ﷺ: «أسـلمت على ما أسـلفت من خيـر»[٣].

قلـت: مـن ارتكب جريمة مـن الجرائم وهو مسـلم فـإن الأفضل لـه أن يسـتتر بسـتر الله فـلا يفضح نفسـه، فإذا تـاب من الزنا أو شـرب الخمـر مثـلًا فـلا يطلـب إقامـة الحـد عليـه، بل يتـوب بينـه وبيـن الله عـز وجـل، «ومن سـتر على مسـلم سـتره الله فـي الدنيا والآخـرة»[٤]،

(١) سورة الأنفال الآية: ٣٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢١٧.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان (١/ ١١٣، ١١٤) برقم ١٩٤ (١٢٣)، ١٩٥، ١٩٦، وانظر منهاج السنة (٥/ ٢٩٤، ٢٩٨).

(٤) معنى حديث رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤) برقم ٢٦٩٩ كتاب الذكر والدعاء.

«والله يُلقي كنفه على عبده يوم القيامة ويقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا اليوم أسترها عليك في الآخرة»[١].

فلا نقول للعاصي التائب: اذهب اطلب إقامة الحدّ على نفسك -مع أننا نعلم إن الحدود تكفر المعاصي- فإذا أصر العاصي على معصيته فإن الحدّ كفارة لذنبه[٢]، كما فعل الرسول ﷺ بماعز، والمرأة الزانية، رجمهما، وصلى على الزانية، وقال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»[٣] وفي رواية: «لو تابها صاحب مكس لغفر له»[٤] نحن نعلم ذلك، ولكن ليس الأفضل أن يطلب المرتكب حدًا إقامة الحدّ عليه، بل الأفضل أن يستتر بستر الله عليه لقول الرسول ﷺ في قصة رجم ماعز -لما أذلقته الحجارة، فهرب إلى البقيع فأجهزوا عليه -قال الرسول ﷺ: «هلاّ رددتموه لعلّه أن يتوب فيتوب الله عليه»، ثم قال: «أيها الناس

---

(١) روى مسلم نحوه (٤/ ٢٠٠٢) كتاب البر والصلة برقم ٢٥٩٠، ورواه أيضًا في كتاب التوبة من صحيحه (٤/ ٢١٢٠) برقم ٢٧٦٨ بلفظ: «يدني المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: إي رب! أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق، هؤلاء الذين كذبوا على الله».

(٢) كما في حديث عبادة بن الصامت ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «... فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أتى منكم حدًا فأقيم عليه فهو كفارته، ومن ستر الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له» رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٣٣) كتاب الحدود برقم ٤٣ (١٧٠٩).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٢٤) برقم ١٩٩٦ كتاب الحدود.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٢٣) كتاب الحدود برقم ٢٣(١٦٩٥).

مـن ارتكب شـيئًا مـن هذه القـاذورات فليسـتتر بسـتر الله فإنـه من يبد لنـا صفحـة عنقـه نقـم عليـه الحـد»(١) فالأفضـل السـتر، اللهـم إلا إذا كانـت حقوقًـا للمخلوقيـن فيجب أداؤهـا، ولا تقبل توبتـه حتى يؤديها إليهـم، ويتحلـل منهـم، فـإن لـم يفعل أو لـم يسـمحوا عنهـا فإنها -إن لـم تؤخـذ منـه فـي الدنيا- أخـذت منه فـي الآخـرة، كما فـي الحديث «إن المفلـس مـن أمتي، يأتـي يوم القيامـة بصلاة وصيـام وزكاة، ويأتي وقـد شـتم هذا، وقـذف هذا، وأكل مـال هذا، وسـفك دم هذا، وضرب هـذا، فيعطـى هذا من حسـناته، وهـذا من حسـناته، فإن فنيت حسـناته قبـل أن يقضـى مـا عليـه أخـذ مـن خطاياهـم فطرحـت عليه ثـم طرح فـي النـار»(٢)، ولكـن لا يخلّـد فـي النـار، مـا دام موحـدًا، بـل يخـرج بالشـفاعة بعـد تطهيـره بالنار من ذوبه، نسـأل اللـه العافيـة، فعلى العبد المذنـب أن يكثر مـن الحسـنات، لأن المقاصة يوم القيامة بالحسـنات والسـيئات، والحسـنات يذهبن السـيئات، ومن رجحت حسـناته على سـيئاته أفلح وفـاز ورب الكعبة!!

وكلامنـا فـي هـذه الآيـة(٣) علـى أهـل الكبائـر الذيـن لـم تحبـط

---

(١) روى الحاكم معناه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألم بها فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله تعالى، فإنه من يبد لنا صفحته، نقم عليه كتاب الله» قال الحافظ: وهو في الموطأ من مراسيل زيد بن أسلم. انظر: بلوغ المرام- كتاب الحدود: ٢٦٠ برقم ١٢٤٨، وروى أبو داود نحوه في سُننه - كتاب الحدود (٤/ ٥٧٣، ٥٧٦) برقم ٤٤١٩، ٤٤٢٠، وانظر: المنتقى لمجد الدين (٢/ ٧١٠) برقم ٤٠٣٥، ٤٠٣٦.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧) كتاب البر والصلة برقم ٢٥٨١.

(٣) أعني: آية فاطر المتقدمة التي فيها أقسام الموحدين الثلاثة.

أعمالهم بالكفر والشرك والنقاق، وإنما خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا فهؤلاء هم الموحدون الظالمون لأنفسهم، وهم في الآخرة على خمسة أقسام هي:

• القسم الأول: من يقوم من قبره يوم القيامة وليس عليه خطيئة قد حُطّت عنه خطاياه إما بصدقة جارية أو بعلم ينتفع به، أو بولد صالح يدعو له، أو عذّب في قبره بقدر ذنوبه ثم رفع عنه العقاب، وعمل الثواب عمله، فهذا القسم يدخل الجنة، ولا يدخل النار وهم ناجون فائزون(١).

• القسم الثاني: من يقوم من قبره، وعليه ذنوب وخطايا فلما وزنت سيئاته وحسناته رجحت حسناته على سيئاته، فهؤلاء لا يدخلون النار، بل يدخلون الجنة، برحمة الله، وبحسناتهم، وهي من رحمة الله(٢).

قال ابن القيم: (الطبقة الحادية عشرة) طبقة أقوام خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مصرين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم فإذا وزنت به رجحت كفة الحسنات فهؤلاء ناجون فائزون(٣).أ.هـ.

• والقسم الثالث: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار، ومنعتهم سيئاتهم المساوية

---

(١) ينظر في تفسير الآيات: طريق الهجرتين: ٣٨٢-٣٨٤.
(٢) المصدر السابق: ٦١.
(٣) انظر: طريق الهجرتين: ٣٨٠.

مـن دخـول الجنـة، لـم يفضـل لأحدهـم حسـنة يسـتحق بـه الرحمـن مـن ربـه، ولم يفضـل عليه سـيئة يسـتحق بها العـذاب[١]. وهـؤلاء هم أصحـاب الأعـراف[٢].

والأعـراف: جمـع عـرف، وهـو موضع مرتفع أو سـور عـال بين الجنـة والنـار يكـون عليـه وفيـه أصحـاب الأعـراف مـا شـاء اللـه، ثم بعـد ذلـك يدخلـون الجنـة، كمـا وصف ذلـك الله سُـبحانه في سـورة الأعـراف[٣]، حيـث قـال بعـد ذكـر مناداة أصحـاب الجنـة أصحـاب النار[٤]:

• ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي بيـن أهـل الجنـة والنـار حجـاب، قيل هو السـور الـذي يضـرب بينهـم لـه بـاب باطنـه الـذي -يلـي المؤمنيـن- فيـه الرحمـة، وظاهـره -الـذي يلـي الكفـار -مـن قبله -مـن جهتهم- العذاب.

• ثـم قـال: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ صريـح فـي أنهـم مـن بني آدم وهـم أصحـاب الأعراف اسـتوت حسـناتهم وسـيئاتهم.

• ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ يعنـي: أصحـاب الأعـراف يعرفون أهل الجنـة وأهل النار بسـيماهم.

• ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي: نـادى أهـل الأعـراف أهـل الجنـة

(١) انظر: طريق الهجرتين: ٣٨١، وفوائد قُرآنية: ٦١.
(٢) انظر: المرجعين السابقين.
(٣) انظر: طريق الهجرتين: ٣٨٢ وفوائد قُرآنية: ٦١.
(٤) انظر: فوائد قرآنية لابن سعدي: ٦٠، ٦١.

بالسـلام. قالـوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾.

• ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾[١] لـم يدخـل أهـل الأعـراف الجنـة بعـد وهـم يطمعـون فـي دخولهـا، ومـا جعـل اللـه ذلـك الطمـع فيهم إلا كرامـة يريدهـا بهـم فالـذي جمـع الطمع فـي قلوبهـم يوصلهم إلى مـا يطمعـون، فـإن النور لـم ينزع مـن أيديهم فـكان الطمع للنـور الذي فـي أيديهم.

• ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] فهـم بمـكان مرتفـع بيـن الجنة والنـار، فإذا أشـرفوا على أهـل الجنـة نادوهم بالسـلام، وطمعوا فـي الدخول إليها، وإذا أشـرفوا علـى أهـل النـار، وصرفت أبصارهـم تجاه أصحـاب النار، سـألوا الله أن لا يجعلهـم معهم.

• ثـم نادى أهـل الأعراف رجـالًا يعرفونهـم من أهل النـار فقالوا لهـم: مـا نفعكـم جمعكـم وعشـيرتكم وتجرؤكـم علـى الحـق ولا اسـتكباركم كما قال تعالـى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[٣].

• ثـم نظـر أهـل الأعراف إلـى الجنـة، فرأوا مـا فيها مـن الضعفاء الذيـن كان الكفار يحتقرونهم في الدنيـا، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهـم بفضلـه، فيقـول أهـل الأعـراف لأهـل النـار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٦.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٤٧.
(٣) سورة الأعراف الآية: ٤٨.

أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ هـؤلاء الضعفـاء الذيـن كنتـم تزعمـون وتقسـمون أن اللـه لا يرحمهـم انظروهم فـي الجنة، قـد رحمهم ربهم فهـا هـم فـي الجنـة، وأنتـم فـي النـار، مـا أغنـت عنكـم قوتكـم، ولا جمعكـم ولا جاهكـم، ثم يقـال لأهل الأعـراف ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

• قيـل إن معنـى الآيـة: إن أصحـاب الأعراف إذا عيّروا أصحاب النـار وأخبروهـم أنـه لـم يغـن عنهم جمعهـم واسـتكبارهم، فـإن أهل النـار يعيّرون أصحـاب الأعراف بأنهـم لا يزالون موقوفيـن لم يدخلوا الجنة، ويقسـمون أن أهـل الأعراف لا يدخلون الجنـة، وأنهم يصيرون إلـى النـار معهم لمـا رأوهـم متخلفين عن دخـول الجنة.

• فتقـول الملائكة حينئذٍ لأصحـاب النار ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[١]، والقـولان فـي تفسـير الآيـة قويـان محتمـلان كمـا قـال ابـن القيـم[٢]: وعلـى كلا القوليـن يدخـل أصحـاب الأعـراف الجنة بعـد ذلك.

• القسـم الرابـع: مـن قـام من قبـره وعليـه سـيئات، فلمـا وزنت سـيئاته وحسـناته، رجحـت سـيئاته علـى حسـناته، فهـؤلاء يؤمـر بهم لدخـول النـار، ثـم ردَّ مـن دونهـا ولـم يدخلهـا، بـل دخـل الجنـة، إما بشـفاعة رسـول لـه، أو شـفاعة أحـد مـن أقربائـه، أو معارفـه، ممـن

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٩.
(٢) طريق الهجرتين: ٣٨٤.

يجعـل اللـه لهـم فـي يـوم القيامـة شـفاعة، لعلـو مقاماتهم علـى الله، وكرامتهـم عليـه، أو أدركتهم رحمة الله الواسـعة المحضة بلا واسـطة ولا شـفاعة[١].

• القسـم الخامـس: قوم قاموا مـن قبورهم وعليهم سـيئات، فلما وزنـت سـيئاتهم مـع حسـناتهم، رجحت سـيئاتهم على حسـناتهم، ثم أمـر بهـم لدخـول النـار فدخلوهـا، وهـم طبقـة أهـل المحنـة والبلية، نعـوذ باللـه، وإن كانـت آخرتهم إلـى عفو وخيـر[٢]، فيعذبون فـي النار بقـدر ذنوبهـم، وأقـل مـن يعـذب فـي النـار مـن يوضـع فـي أخمـص قدميـه جمرتـان يغلـي منهمـا دماغـه، مـا يـرى أن أحـدًا أشـد منهـم عذابًـا وهـو أهونهـم عذابًـا، أو يوضـع فـي ضحضـاح مـن نـار يغلـي منـه دماغـه[٣]، أو يوضـع في رجليـه نعلان بهما شـراكان من نـار يغلي منهمـا دماغـه[٤]، ومنهم مـن تأخذه النار إلـى أنصاف سـاقيه[٥]، ومنهم مـن تأكل منـه النار كل شـيء إلا موضع السـجدة[٦]، ويلبثـون في النار علـى قـدر أعمالهم ثـم يخرجون منها وقد امتحشـوا، ضبائـر ضبائر قد غيرّتهـم النـار، فينبتـون علـى أنهـار الجنة، ويفيـض عليهم أهـل الجنة

(١) انظر: فوائد قُرآنية لابن سعدي: ٦١، وشرح العقيدة الواسطية للشيخ الفوزان: ١٥٦، ١٥٨، وشرح الطحاوية: ٢٠٥.
(٢) انظر: طريق الهجرتين: ٣٨٤، وفوائد قُرآنية: ٦١.
(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٩٥) رقم ٣٥٧، ٣٦٠.
(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٩٦) رقم ٣٦٢ و ٣٦٤.
(٥) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٦٣) ح رقم ٢٩٩.
(٦) المرجع السابق.

مـن المـاء حتى تنبت أجسـادهم ثـم مآلهم إلـى الجنـة[١]، يدخلهم الله الجنـة بالشـفاعة، ولا يبقـى فـي النـار أحـد فـي قبلـه أدنـى أدنى مثقـال حبـة خـردل مـن إيمـان[٢] كمـا تواتـرت بذلـك الأحاديـث عن النبـي ﷺ وأجمـع عليه سـلف الأمة وأئمتهـا، قال حذيفة وابن مسـعود وغيرهمـا: «يحشـر النـاس يـوم القيامـة ثلاثـة أصنـاف: فمـن رجحت حسـناته علـى سـيئاته بواحدة دخـل الجنة، ومـن رجحت سـيئاته على حسـناته بواحـدة دخـل النـار، ومن اسـتوت حسـناته وسـيئاته فهو من أهل الأعـراف»[٣] أ.هـ.

قـال ابـن القيم: وهـذه الموازنـة تكون بعـد القصاص، واسـتيفاء المظلوميـن حقوقهـم مـن حسـناته، فـإذا بقـي شـيء منهـا وزن هـو وسـيئاته[٤]. أ. هـ.

١ هـذه أقسـام الظالمين لأنفسـهم وهم أهـل الكبائـر المذكورين فـي قولـه تعالـى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[٥] الآيـات.

١ قـال ابـن القيـم رحمه اللـه: الظالم لنفسـه مقصر في الـزاد غير

(١) انظر: الأحاديث في صحيح مسلم (١/ ١٧٢) فما بعدها رقم ٣٠٤.
(٢) انظر فوائد قُرآنية: ٦١ وانظر: الأحاديث في صحيح مسلم (١/ ١٨٢ فما بعدها).
(٣) انظر: طريق الهجرتين: ٣٨٠، ٣٨١.
(٤) انظر: المصدر السابق: ٣٨١.
(٥) سورة فاطر الآيتان: ٣٢-٣٣.

آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار[١]، فإن الظالم لنفسه كان إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة فمرة يأخذ بالرخصة، ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق، تهاونًا ووعدًا بالتوبة، فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب، فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما، فإذا ورد يوم القيامة ميّز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده، وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله[٢].أ.هـ.

وأما القسم الثاني في أقسام الموحدين، فهم المقتصدون: والمقتصد هو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات، ولم يكثر من نوافل العبادات، وإذا صدرت منه بعض الهفوات، بادر إلى التوبة النصوح فعاد إلى مرتبته[٣]، فهو مقتصر على ما يجب عليه، تارك

(١) انظر: طريق الهجرتين: ١٨٦.
(٢) المرجع السابق: ١٨٧.
(٣) فوائد قرآنية لابن سعدي: ٦٢.

مـا حـرم اللـه عليـه[١]، وقـد يتـرك بعـض المسـتحبات، ويفعـل بعض المكروهـات[٢]، وهـو يطيع اللـه ولا يعصيه، ولكنه لا يتقـرب إلى الله بالنوافـل مـن الطاعـات[٣]، أو هـو غير المجتهـد في طاعة ربـه، فيكون عملـه ذلـك قصـدًا أي: اقتصـادًا[٤]، اقتصـر مـن الـزاد علـى مـا يبلغه، ولـم يتـزود ما يضـره[٥]، وهـم أصحـاب اليمين[٦].

قـال ابـن القيّـم: هـذه طبقـة أهـل النجـاة، وهـي طبقة مـن يؤدي فرائـض اللـه ويتـرك محـارم اللـه مقتصـرًا علـى ذلك لا يزيـد عليه، ولا ينقـص منـه، فـلا يتعـدى إلـى مـا حـرم اللـه عليـه، ولا يزيـد علـى ما فرضـه اللـه عليـه فهـذا مـن المفلحيـن بضمـان رسـول اللـه ﷺ لمـن أخبـره بشـرائع الإسـلام فقال: واللـه لا أزيد علـى هـذا ولا أنقص منه فقـال: ﷺ: «أفلـح إن صـدق»[٧] فهؤلاء مضمـون لهم على اللـه تكفير سـيئاتهم إذا أدوا فرئضـه، واجتنبـوا كبائـر مـا نهاهـم عنه، قـال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾[٨] وصـح عنـه ﷺ أنـه قـال: «الصلـوات الخمـس ورمضـان إلـى رمضـان والجُمُعـة إلـى الجُمُعة مكفـرات لمـا بينهن ما

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٢٠).
(٢) تفسير القُرآن العظيم (٣/ ٥٥٤).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٨٤).
(٤) جامع البيان (١٢/ ١٣٧).
(٥) طريق الهجرتين: ١٨٦.
(٦) المصدر السابق: ٢٠١ وفوائد قُرآنية: ٦٢.
(٧) رواه مسلم في صحيحه بعدة ألفاظ وروايات (١/ ٤٠ فما بعدها) حديث رقم ٨ و٩ و١٠ و١٤.
(٨) سورة النساء الآية: ٣١.

لـم تغش كبيـرة»[1]، فإذا غشـي أحدهم كبيـرة وتاب منها توبـة نصوحًا لـم يخـرج مـن مرتبته فـكان بمنزلة من لا ذنـب له، فإن تكفيـر الصغائر يقع بشـيئين:

أحدهما: الحسنات الماحية.

والثانـي: اجتنـاب الكبائـر، وقـد نـص اللـه عـز وجل علـى ذلك فقـال تعالـى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[2] والآيـة المتقدمـة[3] أ.هـ.

وقـال العلامـة ابـن سـعدي: فـي قولـه تعالـى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾[4] سـلموا مـن عـذاب القبـر، ومـن عـذاب النـار، وسـلّم اللـه لهـم إيمانهـم وأعمالهـم، فأدخلهـم بـه الجنـة كل علـى حسـب مرتبتـه[5] أ.هـ.

قلـت: فالمقتصـد قـد يرتكـب كبائـر لكـن لا يصـر عليهـا بـل يتـوب منهـا، فهـو قـد يلـمّ بالكبيرة ثـم يتـوب منها، وكـذا هو قـد يقع فـي المحرمـات مـن صغائـر الذنـوب، وقد يتـرك المسـتحبات ويفعل المكروهـات[6]، كمـا قال تعالـى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه - كتاب الطهارة - انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ١١٧).
(٢) سورة هود الآية: ١١٤.
(٣) انظر: طريق الهجرتين: ٣٧٩، ٣٨٠ بتصرف واختصار.
(٤) سورة الواقعة الآيتان: ٩٠-٩١.
(٥) انظر: فوائد قرآنية: ٦٢.
(٦) كما يفهم من تعريفات السلف للمقتصد. انظر: ص٤٤، وينظر: طريق الهجرتين: ٣٨٠.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[١].

واللمـم: هـي الصغيـرة، أو هـي الكبيـرة التـي يلـم بهـا العبـد ثم يتركهـا، ويتـوب منهـا[٢]، وأمـا المسـتحبات والمكروهـات: فـلا إثـم علـى من تـرك المسـتحبات كلهـا، أو فعـل المكروهـات كلهـا، وإنما فاعـل ذلـك يفوتـه أجـر عظيـم، ودرجـات كثيـرة، وحسـنات عظيمة، وثـواب كبيـر، ولكـن لا إثـم عليـه في تـرك المسـتحبات كلهـا، وفعل المكروهـات كلهـا، ولـو أصـر عليهـا حتـى مـات، ولـو جاهر بهـا، ما لـم يسـتخف بكلام النبـي ﷺ، أو يكـذب النبـي ﷺ، أو يسـتهزئ بأمره ﷺ أو نهيـه[٣].

قـال ابـن القيّـم: والمقتصـد: اقتصـد مـن الـزاد علـى مـا يبلغـه ومـا يشـد مـع ذلـك أحمـال التجـارة الرابحـة، ولـم يتـزود مـا يضره، فهـو سـالم غانـم، لكـن: فاتتـه المتاجـر الرابحـة وأنـواع المكاسـب الفاخـرة[٤]، فالمقتصـدون: أدّوا وظيفـة تلـك المرحلـة ولـم يزيـدوا عليهـا، ولا نقصـوا منهـا، فلا حصلـوا على أربـاح التجار، ولا بخسـوا الحق الـذي عليهـم، فـإذا اسـتقبل أحدهـم مرحلـة يومـه اسـتقبلها بالطهـور التـام والصـلاة التامـة فـي وقتهـا بأركانهـا، وواجباتهـا، وشـرائطها، ثـم ينصرف منهـا إلى مباحاتـه، ومعيشـته، وتصرفاته، التي

(١) سورة النجم الآية: ٣٢.
(٢) انظر: تفسير القُرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٥٥، ٢٥٦)، الاستقامة (٢/ ١٨١).
(٣) انظر: ص٤٩.
(٤) طريق الهجرتين: ١٨٦.

أذن الله فيها منشغلًا بها، قائمًا بأعيانها، مؤديًا واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات، وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول، فهو كذلك سائر يومه، فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته، فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق، يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك لهم حقه[١] أ. هـ.

وأما القسم الثالث من أقسام الموحدين فهم السابقون بالخيرات: والسابق بالخيرات هو الذي أدى الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، ولم يشتغل بفضول المباحات المنقصة لدرجته، وهو الذي كمّل مراتب الإسلام والإيمان، ووصل إلى مرتبة الإحسان، فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه الله يراه، وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله، فكان قلبه ملآنًا من محبة الله والنصح لعباد الله[٢]، أو هو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرمات ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات التي هي غير واجبة[٣]، أو هو الذي سارع في الخيرات واجتهد فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض المكثر من النوافل

(١) طريق الهجرتين: ١٨٧ بتصرف يسير.
(٢) انظر: فوائد قُرآنية لابن سعدي: ٦٢.
(٣) أضواء البيان (٤/ ٨٤).

التـارك للمحـرم والمكروه[١]، أو هـو الفاعل للواجبات والمسـتحبات التـارك للمحرمـات والمكروهـات وبعض المباحـات[٢].

قـال ابـن تيميـة: «فالمقتصـدون قامـوا بواجـب التوحيـد، والسـابقون المقربـون قامـوا بمسـتحبه مـع واجبـه، ولا شـيء أحـب إلـى اللـه من التوحيـد، ولا شـيء أبغـض إليه من الشـرك، ولهـذا كان الشـرك غيـر مغفـور لصاحبـه، بـل هـو أعظـم الظلـم».[٣] أ.هـ.

وقـال العلامـة ابـن سـعدي: فهـؤلاء هـم المقربـون فـي جنـات النعيـم وهـم أهـل الفـردوس الأعلـى وهـم صفـوة الصفـوة، فكمـا كانـوا هـم السـابقين فـي الدنيـا إلـى كل خيـر كانـوا فـي الآخـرة فـي أعلـى المنـازل، وكمـا تخيّـروا مـن الأعمـال أحسـنها جعـل اللـه لهم مـن الثـواب أحسـنه، ولهـذا كانـت عيـن التسـنيم -أعلـى أشـربة أهل الجنـة- يشـرب منهـا هـؤلاء المقربـون صرفًـا، وتمـزج لأصحـاب اليميـن مزجًـا فـي بقيـة أشـربة الجنـة التـي لا نقـص فيهـا بوجـه مـن الوجـوه ... وهكـذا بقيـة ألـوان وأصنـاف نعيـم أهـل الجنـة، لهـؤلاء السـابقين منـه أعـلاه، وأكملـه، وأنفسـه، وإن كان ليس في نعيـم الجنة دنـي ولا نقـص، ولا كـدر، بوجـه مـن الوجـوه، بـل كل من تنعـم بأي نعيـم مـن نعيمهـا لـم يكن فـي قلبه شـيء أعلى منه، فـإن اللـه أعطاهم وأرضاهـم، وخيـار هـؤلاء السـابقين هـم الأنبيـاء علـى مراتبهـم ثـم

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٢٠).
(٢) تفسير القُرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٥٥٤، ٥٥٥).
(٣) انظر الاستقامة (٢/ ٥٨).

الصديقون على مراتبهم... ولكل درجات مما عملوا فسبحان من فاوت بين عباده هذا التفاوت العظيم، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(١) (٢). أ هـ.

وقال ابن القيم: فالتسنيم هو أعلى أشربة أهل الجنة، وقد أخبر سبحانه وتعالى أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، فالجزاء وفاق العمل فكلما خلصت أعمال المقربين كلها لله عز وجل خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات، مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مزج شرابه، فالجزاء من جنس العمل(٣). أ.هـ.

وقال شيخ الإسلام: «وقد أخبر النبي ﷺ عن حال أولياء الله وما صاروا به أولياء، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليّ عبد بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٠٥.

(٢) انظر: فوائد قرآنية: ٦٢، ٦٣ بتصرف يسير.

(٣) انظر: طريق الهجرتين: ١٩٤.

فاعلـه تـرددي عـن قبـض نفس عبـدي المؤمـن، يكـره المـوت وأكره مسـاءته، ولا بـد له منـه»[١]، فقد ذكر في هـذا الحديـث أن التقرب إلى اللـه تعالى علـى درجتين:

أحدهما: التقرب إليه بالفرائض.

والثانية: التقرب إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض.

* فالأولى: درجة «المقتصدين» الأبرار أصحاب اليمين.

* والثانيـة: درجـة «السـابقين» المؤمنيـن، كمـا قـال اللـه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[٢]، قـال ابـن عبـاس رضي الله عنه: يمـزج لأصحاب اليميـن مزجًا، ويشـربه المقربـون صرفـا ... فـكل من آمـن بالله ورسـوله واتقـى الله فهـو من أوليـاء اللـه»[٣] أ.هـ.

وقـال أيضًا: اعلـم أن سـورة ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ سـورة عجيبة الشـأن مـن سـورة القُـرآن علـى اختصارها، فـإن اللـه سـبحانه ابتدأها بذكـر كيفيـة خلـق الإنسـان مـن النطفـة ذات الأمشـاج والأخـلاط التـي لم يـزل بقدرتـه ولطفـه وحكمتـه يصرِّفـه عليهـا أطـوارًا، وينقله مـن حـالٍ إلـى حـال، إلـى أن تمت خلقتـه وكملـت صورتـه، فأخرجه إنسـانًا سـويًا، سـميعًا بصيـرًا، ثـم لمـا تكامـل تمييـزه وإدراكـه هـداه

(١) رواه البخاري في كتاب الرقائق برقم ٦٠٢١.

(٢) سورة المطففين الآيات: ٢٢-٢٦.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٧)، الاستقامة (٢/ ٤١، ٤٢، ٥٨).

طريقـي الخيـر والشـر، والهـدى والضـلال، وأنه بعـد هـذه الهداية إما أن يشـكر ربّـه وإمـا أن يكفـره، ثـم ذكر مـآل أهل الشـكر والكفـر، وما أعـدّ لهـؤلاء وهـؤلاء ... فتضمنـت السـورة خلـق الإنسـان وهدايتـه، ومبـدأه وتوسـطه ونهايتـه، وتضمنت المبـدأ والمعـاد، والخلق والأمر ... وفيهـا ذكـر أقسـام بنـي آدم كلهـم، فإنهـم إمـا أهـل شـمالٍ –وهـم الكفـار– أو أهـل يميـن: وهم نوعـان: أبـرار ومقربون، وذكر سُـبحانه أن شـراب الأبـرار يمـزج مـن شـراب عبـاده المقربيـن، لأنهـم مزجوا أعمالهـم، ويشـربه المقربـون صرفًـا خالصًـا كمـا أخلصـوا أعمالهم، وجعـل سـبحانه شـراب المقربيـن مـن الكافـور الـذي فيه مـن التبريد والقـوة ما يناسـب بـرد اليقيـن وقوته لما حصـل لقلوبهم ووصـل إليها فـي الدنيـا، مع ما في ذلـك من مقابلته للسـعير، وأخبر سُـبحانه أن لهم شـرابًا آخـر ممزوجًـا مـن الزنجبيـل لمـا فيه مـن طيـب الرائحـة ولذة الطعـم، والحـرارة التـي توجـب تغيـر بـرد الكافـور وإذابـة الفضلات وتطهيـر الأجـواف، ولهـذا وصفـه الله سـبحانه بكونـه شـرابًا طهورًا، –أي: مطهـرًا لبطونهـم– فوصفهـم اللـه بجمـال الظاهـر والباطن كما قـال تعالـى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[١]، فالنضـرة: جمـال وجوههـم، والسـرور: جمـال قلوبهـم، كمـا قـال: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢]... ثـم ذكـر سُـبحانه مـن أعمال الأبـرار ما ينبّه سـامعه على جمعهـم لأعمـال البر كلهـا، فذكر سُـبحانه وفاءهم بالنـذر، وخوفوهم

(١) سورة الإنسان الآية: ١١.
(٢) سورة المطففين الآية: ٢٤.

مـن ربهـم، وإطعامهـم الطعـام علـى محبتهـم لـه، وإخلاصهـم لربهم فـي طاعتهـم... ثم أخبر عنهـم بأنهم يخافـون اليوم العسير القمطرير، وهـو يـوم القيامـة، ففـي ضمـن هـذا الخـوف إيمانهـم باليـوم الآخر، وكفهـم عـن المعاصـي التـي تضرهـم فـي ذلـك اليـوم، وقيامهـم بالطاعـات التـي ينفعهـم فعلهـا، ويضرهـم تركهـا فـي ذلك اليـوم، ثم أخبـر عنهـم بإطعـام الطعام علـى محبتهم لـه، وذلك يدل على نفاسـته عندهـم وحاجتهـم إليه، ومـا كان كذلـك فالنفوس به أشـح، والقلوب بـه أعلـق، واليـد لـه أمسـك، فـإذا بذلـوه فـي هـذا الحـال، فهـم لمـا سـواه مـن حقـوق العبـاد أبـذل، ... ثم ذكـر أن مصـرف طعامهـم إلى المسـكين واليتيـم والأسـير الذين لا قوة لهـم ينصرونهم بهـا، ولا مال لهـم يكافئونهـم بـه، ولا أهل ولا عشـيرة يتوقعون منهـم مكافأتهم كما يقصـده أهـل الدنيـا والمعاضـون بإنفاقهـم وإطعامهـم، ثم أخبـر أنهم إنمـا فعلـوا ذلـك لوجـه اللـه، وأنهـم لا يريدون ممـن أطعمـوه عوضًا مـن أموالهـم ولا ثنـاء عليهـم بألسـنتهم، كمـا يريده مـن لا إخلاص له بإحسـانه إلـى الناس مـن معاوضتهـم أو الشُّـكُور منهـم، فتضمن ذلك المحبـة والإخـلاص والإحسـان ... ثـم أخبر سُـبحانه بأنه وقاهم شـر مـا يخافونـه ولقّاهـم فـوق مـا كانـوا يأملونـه، وذكـر سُـبحانه أصناف النعيـم الـذي حياهم بـه من المسـاكن والملابـس والمجالـس والثمار والشـراب والخـدم والنعيـم والملـك الكبيـر ... ثـم ذكر سُـبحانه لون ملابـس الأبـرار، وأنـه ثياب سُـندسٍ خُضرٍ واسـتبرق، وحليتهـم وأنها

أسـاور مـن فضـة، فهـذه زينـة ظواهرهم، ثـم ذكر زينـة بواطنهـم وهو الشـراب الطهـور، وهـو بمعنـى التطهيـر، فـإن قيـل: فلـم اقتصـر مـن آنيتهـم وحليتهـم علـى الفضـة دون الذهـب؟! ومعلـوم أن الجنـان جنتـان مـن فضـة آنيتهمـا وحليهمـا ومـا فيهمـا، وجنتـان مـن ذهـب آنيتهمـا وحليتهمـا ومـا فيهمـا، قيـل: سـياق هـذه الآيـات إنمـا هو في وصـف الأبـرار ونعيمهـم مفصّـلًا دون تفصيـل جـزاء المقربيـن، فإنه سُـبحانه إنمـا أشـار إليه إشـارة تنبـه على ما سـكت عنه، هو أن شـراب الأبـرار يمـزج من شـرابهم.

فالسـورة مسـوقة بصفة الأبـرار وجزائهـم على التفصيـل، وذلك -واللـه أعلـم- لأنهـم أعـمّ مـن المقربيـن وأكثـر منهـم، ولهـذا يخبر سُـبحانه عنهم بأنهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[1]، وعن المقربيـن السـابقين بأنهـم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[2]، وأيضًـا فـإن فـي ذكـر جـزاء الأبـرار تنبيهًـا علـى أن جـزاء المقربين ما لا عيـنٌ رأت ولا أذنٌ سـمعت ولا خطـر علـى قلـب بشـر، وأيضًـا فإنه سُـبحانه ذكـر أهل الكفـر وأهل الشـكر، وأهـل الشـكر نوعان:

- أبرار أهل يمين.
- ومقربون سابقون.

وكل مقـرّب سـابق فهـو مـن الأبـرار، ولا ينعكس، فاسـم الأبرار

---

(١) سورة الواقعة الآيتان: ٣٩-٤٠.
(٢) سورة الوقعة الآيتان: ١٣-١٤.

والمقربيـن كاسـم الإسـلام والإيمـان أحدهما أعـمّ من الآخـر وأيضًا فإنـه سُبحانه أخبـر أن هـذا جزاء سـعيهم المشـكور، وكل مـن الأبرار والمقربين سـعيهم مشـكور، فذكر سُبحانه السعي المشـكور، والسعي المسخوط .أ.هـ(١).

وقـال ابـن القيـم: «العبـد من حيـن اسـتقرت قدمه في هـذه الدار فهـو مسـافر فيهـا إلـى ربـه، ومدة سـفره هـي عمره الـذي كتب لـه، ثم قـد جعلـت الأيـام والليالـي مراحـل لسـفره، فـكل يـوم وليلـة يطوى مرحلـة مـن المراحـل، فـلا يـزال يطويهـا مرحلـة بعـد مرحلـة حتـى ينتهـي السـفر ... ثـم النـاس فـي قطـع هـذه المراحل قسـمان:

فقسـم قطعوهـا مسـافرين فيهـا إلـى دار الشـقاء، فكلمـا قطعـوا منهـا مرحلـة قربـوا مـن تلـك الـدار، وبعـدوا عـن ربهـم وعـن دار كرامتـه، فقطعـوا تلـك المراحـل بمسـاخط الـرب ومعاداتـه ومعـاداة رُسـله وأوليائـه ودينـه والسـعي في إطفـاء نـوره وإبطال دعوتـه وإقامة دعـوة غيرهـا، فهـؤلاء جعلـت أيامهـم يسـافرون فيها إلـى الـدار التي خلقـوا لهـا واسـتعملوا بها، فهـم مصحوبون فيهـا بالشـياطين الموكلة بهـم يسـوقونهم إلـى منازلهـم سـوقًا كمـا قـال تعالـى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾(٢) أي: تزعجهـم إلـى المعاصي والكفـر إزعاجًـا، وتسـوقهم سـوقًا.

---

(١) انظر: جامع الرسائل لابن تيمية - رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان (١/ ٦٩-٧٤).
(٢) سورة مريم الآية: ٨٣.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام، وهم ثلاثة أقسام:

- ظالم لنفسه.
- ومقتصد.
- وسابق بالخيرات بإذن الله.

وهؤلاء كلهم مستعدون للسير، موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره[١]». أ.هـ.

• وقال أيضًا: «والسابق بالخيرات همه في تحصيل الأرباح، وشدّ أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسرانًا أن يدخر شيئًا مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم، فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب منها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعل، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله: يرى خسرانًا بيّنًا أن يمر عليه وقت في غير متجر، فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجرة الأقسام الثلاثة[٢]، ليعلم -أي: العبد- من أي التجار هو...»[٣] أ.هـ.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين: ١٨٥، ١٨٦، ٢٠٣، بتصرف يسير.
(٢) يعني: أقسام الموحدين: الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات بإذن الله.
(٣) انظر: طريق الهجرتين: ١٨٦.

• وقال أيضًا: والسابقون بالخيرات نوعان:

- أبرار.

- ومقربون.

وهم من أصحاب اليمين.

فإن أصحاب اليمين ثلاثة أصناف:

- مقتصدون.

- وأبرار.

- ومقربون[١]. أ.هـ.

* وقال أيضًا: أما السابقون الأبرار: فاهتموا بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه، فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة، واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من نومه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمر الله عز وجل، فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى، ثم إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد، فأدى فريضته كما أمر مكملًا لها

---

(١) وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمنًا عند الإطلاق، وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه. وفي موضع آخر قال ابن القيم: وأصحاب اليمين ينقسمون إلى قسمين: ظالم لنفسه، ومقتصد، انظر: طريق الهجرتين: ١٨٧، ٢٠١.

بشـرائطها وأركانهـا وسـننها وحقائقها الباطنـة من الخشـوع والمراقبة والحضـور بيـن يـدي الرب، فينصـرف من الصـلاة وقد أثّـرت في قلبه وبدنـه وسـائر أحوالـه آثـارًا تبـدو علـى صفحاتـه ولسـانه وجوارحـه، ويجـد ثمرتهـا فـي قلبـه، مـن الإنابـة إلـى دار الخلـود، والتجافـي عن دار الغـرور، وقلـة التكالـب والحـرص على الدنيـا وعاجلهـا، قد نهته صلاتـه عن الفحشـاء والمنكـر، وحببت إليه لقـاء اللـه، ونفرته من كل قاطـع يقطعه عـن الله، فهو مغمـوم مهموم كأنه في سـجن حتى تحضر الصـلاة، فـإذا حضرت قـام إلى نعيمه وسـروره وقـرة عينه وحيـاة قلبه فهـو لا تطيـب لـه الحياة إلا بالصـلاة، هذا وهـم في ذلك كلـه مراعون لحفـظ السُـنن لا يخلّـون منهـا بشـيء مـا أمكنهـم، فيقصـدون مـن الوضـوء أكملـه، ومـن الوقـت أوله، ومـن الصفـوف أولها، عـن يمين الإمـام أو خلـف ظهـره، ويأتـون بعـد الفريضـة بـالأذكار المشـروعة كالاسـتغفار ثلاثـًـا، وقـول: «اللهم أنت السـلام ومنك السـلام تباركت يـا ذا الجـلالِ والإكـرام»، وقـول: «لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه لـه الملـك ولـه الحمـد وهـو علـى كل شـيء قديـر، اللهـم لا مانع لمـا أعطيـت، ولا معطـي لمـا منعـت ولا ينفـع ذا الجـد منـك الجـد، لا إلـه إلا اللـه مخلصيـن لـه الدين ولو كـره الكافـرون»، ثم يسـبحون ويحمـدون ويكبرون تسـعًا وتسـعين، ويختمون المائة بــ لا إله إلا الله وحـده لا شـريك لـه له الملـك ولـه الحمد وهو علـى كل شـيءٍ قدير، ومـن أراد المزيـد قـرأ آية الكرسـي والمعوذتيـن عقيـب كل صلاة فإن

فيهـا أحاديـث رواهـا النسـائي وغيره، ثـم يركعون السُـنة على أحسـن الوجـوه، هـذا دأبهـم فـي كل فريضـة، فـإذا كان قبـل غروب الشـمس توفـروا علـى أذكار المسـاء الـواردة فـي السُـنة، نظيـر أذكار الصبـاح الـواردة فـي أول النهـار لا يخلـون بهـا أبـدًا، فإذا جـاء الليل كانـوا فيه علـى منازلهـم مـن مواهب الرب سُـبحانه التي قسـمها بين عبـاده، فإذا أخـذوا مضاجعهـم أتـوا بـأذكار النـوم الـواردة في السُـنة، وهـي كثيرة تبلـغ نحـوًا مـن أربعيـن فيأتـون منهـا بمـا علمـوه مـا يقـدرون عليـه قـراءة سـورة الإخـلاص والمعوذتين ثلاثًا ثم يمسـحون بها رؤوسـهم ووجوههم وأجسـادهم ثلاثًـا، ويقرأون آية الكرسـي، وخواتيم سـورة البقـرة، ويسـبحون ثلاثًا وثلاثيـن، ويحمدون ثلاثًا وثلاثيـن، ويكبرون أربعًـا وثلاثيـن، ثـم يقـول أحدهـم: اللهـم إني أسـلمت نفسـي إليك، ووجهـت وجهـي إليـك، وفوضـت أمـري إليـك، وألجـأت ظهـري إليـك، رغبـة ورهبـة إليـك، لا ملجـأ ولا منجـا منـك إلا إليـك، آمنت بكتابـك الـذي أنزلـت وبنبيك الذي أرسـلت، وإن شـاء قال: باسـمك ربـي وضعـت جنبـي وبـك أرفعـه، فـإن أمسـكت نفسـي فاغفـر لهـا، وإن أرسـلتها فأحفظهـا بمـا تحفـظ بـه عبـادك الصالحيـن، وإن شـاء قـال: اللهـم رب السـموات السبع ورب العـرش العظيـم، ربـي ورب كل شـيء، فالـق الحـب والنـوى، منـزل التـوراة والإنجيـل والفرقـان أعـوذ بـك مـن شـر كل دابـة أنـت آخـذ بناصيتهـا، أنـت الأول فليـس قبلـك شـيء، وأنـت الآخـر فليس بعدك شـيء، وأنـت الظاهـر فليس

فوقـك شـيء، وأنـت الباطـن فليـس دونـك شـيء، اقـض عنـي الدين وأغننـي مـن الفقـر، وبالجملـة فـلا يـزال يذكـر اللـه على فراشـه حتى يغلبـه النـوم، وهـو يذكـر اللـه، فهـذا منامه عبـادة، وزيـادة له فـي قربه مـن اللـه، فـإذا اسـتيقظ عـاد إلـى عادتـه الأولـى، ومع هـذا فهـو قائم بحقـوق العبـاد مـن عيـادة المرضى وتشـييع الجنائـز وإجابـة الدعوة، والمعاونـة لهـم بالجاه والبدن والنفـس والمال، وزيارتهـم، وتفقدهم، وقائـم بحقـوق أهلـه وعيالـه، فهـو متنقـل فـي منـازل العبوديـة، كيف نقلـه فيهـا الأمـر، فـإذا وقـع منـه تفريـط في حـق من حقـوق اللـه بادر إلـى الاعتـذار، والتوبـة والاسـتغفار، ومحـوه ومداواتـه بعمـل صالح يزيـل أثـره، فهذه وظيفتـه دائمًـا[١] أ.هـ.

وقـال أيضًـا: وأمـا السـابقون المقربـون: فنسـتغفر اللـه الـذي لا إلـه إلا هـو مـن وصـف حالهـم وعـدم الاتصـاف به، بـل ما شـممنا له رائحـة، ولكـن محبـة القـوم تحمـل على تعـرف منزلتهـم والعلـم بها وإن كانـت النفـوس متخلفـة منقطعـة عـن اللحـاق بهـم، ففـي معرفـة القـوم فوائـد عديدة:

- منهـا: أن لا يـزال المتخلـف المسـكين مزريًـا علـى نفسـه ذامًا لها.

- ومنهـا: أن لا يـزال منكسـر القلـب بيـن يـدي ربـه تعالـى ذليلًا لـه يشـهد منازل السـابقين وهـو فـي زمـرة المنقطعين، ويشـهد بضائع

---

(١) انظر: طريق الهجرتين: ٢٠٣-٢٠٥ باختصار.

التجـار وهـو فـي رفقـة المحرومين[١].

- ومنهـا: أن عسـاه أن تنهـض همتـه يومًـا إلـى التشـبث والتعلق بسـاقة القـوم ولـو مـن بعيد.

- ومنهـا: لعلـه أن يصـدق فـي الرغبة واللجـأ إلى من بيـده الخير كلـه أن يلحقـه بالقوم فيصادف سـاعة إجابة لا يسـأل الله فيها شـيئًا إلا أعطاه.

- ومنهـا: أن هـذا العلـم هو من أشـرف علـوم العبـاد، وليس بعد علـم التوحيـد أشـرف منـه، وهـو لا يناسـب إلا النفوس الشـريفة، ولا يناسـب النفـوس الدنيئـة المهينـة، فـإذا رأى نفسـه تناسـب هـذا العلم وتشـتاق إليـه وتحبـه وتأنـس بأقله فيبشـر بالخير فقـد أهل لـه، والعلم بـكل حـال خيـر مـن الجهل، ولعلـه أن يجـري على لسـانه مـا ينتفع به غيـره بقصـده أو بغير قصـده، ...

وبالجملـة ففوائـد العلـم بهـذا الشـأن لا تنحصـر فـلا ينبغـي أن تصغـى إلـى من يثبطـك عنه، وتقـول: إنه لا ينفـع، بل احذره واسـتعن باللـه ولا تعجـز، ولكـن لا تغتـر، فاسـمع الآن وصـف القـوم وأحضر ذهنـك لشـأنهم العجيـب، فـإن وجـدت مـن نفسـك حركـة وهمـة، فاحمـد اللـه، وادخـل، فالطريـق واضـح، والبـاب مفتـوح، فنبـأ القوم عجيـب، وأمرهـم خفـي إلا علـى من لـه مشـاركة معهـم[٢] أ.هـ.

---

(١) في هذا الكلام من التواضع ومشاهدة التقصير ما ينبغي لكل منا أن يكون كذلك، ولكن فضل الله واسع، والمرء مع من أحب يوم القيامة.

(٢) المصدر السابق: ٢٠٥، ٢٠٦.

وقـال أيضًـا: فـوا أسـفاه و وا حسـرتاه!! كيـف ينقضـي الزمـان، وينفـد العمـر، والقلـب محجـوب، مـا شـمّ لهـذا رائحـة، وخـرج من الدنيـا كمـا دخـل إليهـا ومـا ذاق أطيـب مـا فيها، بـل عاش فيها عيشـة البهائـم وانتقـل منهـا انتقـال المفاليـس، فكانـت حياتـه عجـزًا، وموته كمـدًا، ومعـاده حسـرة وأسـفًا، اللهـم فلـك الحمـد وإليك المشـتكى وأنـت المسـتعان وبك المسـتغاث وعليـك التكلان ولا حـول ولا قوة إلا بك[1].أ.هـ.

ثـم قـال رحمـه اللـه: فالسـابقون المقربون: هـم قوم قـد امتلأت قلوبهـم مـن معرفـة الله، وغمـرت بمحبته وخشـيته وإجلالـه ومراقبته فسـرت المحبـة فـي أجزائهـم فلم يبـق فيها عـرق ولا مفصـل إلا وقد دخلـه الحـب، قـد أنسـاهم حبه ذكـر غيره، وأوحشـهم أنسـهم به ممن سـواه، قـد فنـوا بحبه عـن حب من سـواه، وبذكـره عن ذكر من سـواه، وبخوفـه، ورجائـه، والرغبة إليه، والرهبـة منه، والتوكل عليـه، والإنابة إليـه والسـكون إليـه، والتذلـل، والانكسـار بيـن يديـه عن تعلـق ذلك منهـم بغيـره، يشـاهد أسـماء اللـه وصفاتـه، يشـاهد عـز سـلطان ربـه وعظمـة جلالـه، وعلـو شـأنه، وبهـاء كمالـه، وهو مسـتوٍ على عرشـه يدبـر أمر عبـاده، وتصعد إليه شـؤون العبـاد، وتعرض عليـه حوائجهم وأعمالهـم، ويشـاهد ربـه قيّومًـا بنفسـه، مقيمًا لـكل ما سـواه، غنيًا عن كل مـن سـواه، وكل من سـواه فقيـر إليـه: ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ

---

(١) المصدر السابق: ٢١١.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1]، يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويفك عانيًا، وينصر ضعيفًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويميت ويحي، ويسعد ويشقي، ويضل ويهدي، وينعم على قوم ويسلب نعمته عن آخرين، ويعز أقوامًا ويذل آخرين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويشهده كما أخبر أعلم الخلق به وأصدقهم في خبره حيث يقول في الحديث الصحيح: «يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع»[2].

فيشاهده كذلك يقسم الأرزاق ويجزل العطايا ويمن بفضله على من يشاء من عباده بيمينه، وباليد الأخرى الميزان يخفض به من يشاء، ويرفع به من يشاء، عدلًا منه وحكمه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فيشهده وحده القيوم بأمر السموات والأرض ومن فيهن ليس له بواب فيستأذن، ولا حاجب فيدخل عليه، ولا وزير فيؤتى، ولا ظهير فيستعان به، ولا ولي من دونه، فيشفع به إليه، ولا نائب عنه فيعرفه حوائج عباده، ولا معين له فيعاونه على قضائها، أحاط سبحانه بها علمًا، ووسعها قدرة ورحمة، فلا تزيده كثرة الحاجات إلا جودًا وكرمًا، ولا يشغله منها شأن عن شأن، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحّين، لو اجتمع أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم وقاموا في صعيد واحد ثم سألوه

(١) سورة الرحمن الآية: ٢٩.
(٢) رواه البخاري - الفتح - (١٣/ ٣٩٣ و ٤٠٣)، ومسلم (٢/ ٦٩٠، ٦٩١).

فأعطى كلًا منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده ذرة واحدة إلا كما ينقص المخيط البحر إذا غمس فيه، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ذلك بأنه الغني الجواد الماجد، فعطاؤه كلام، وعذابه كلام ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، ويشهده كما أخبر عنه أيضًا الصادق المصدوق حيث يقول: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[2].

وبالجملة فيشهده في كلامه وقد تجلى سبحانه وتعالى لعباده في كلامه، وتراءى لهم فيه وتعرف إليهم فيه، فبعدًا وتبًا للجاحدين والظالمين، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[3] لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، فإذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهدًا لقلبه، أنسته ذكر غيره، وشغلته عن حب من سواه، ... فحينئذ يكون الرب سُبحانه سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، كما أخبر عن نفسه على لسان رسوله... فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان، وسجدت تحت العرش،

---

(١) سورة يس الآية: ٨٢.
(٢) رواه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان (١/ ١٦٢) برقم ٢٩٣، ٢٩٥.
(٣) سورة إبراهيم الآية: ١٠.

وأبدانهـم فـي فرشـهم، كما قـال أبـو الـدرداء: «إذا نـام العبـد المؤمن عـرج بروحـه حتى تسـجد تحت العـرش، فـإن كان طاهـرًا أُذن لها في السـجود، وإن كان جنبًـا لـم يـؤذن لهـا فـي السـجود»[1]، وهـذا والله أعلـم هـو السـر الـذي لأجلـه أمـر النبـي ﷺ الجنـب إذا أراد النـوم أن يتوضـأ ... فـإن الوضـوء يخفـف حـدث الجنابـة، ويجعله طاهـرًا من بعـض الوجـوه، فـإذا اسـتيقظ هـذا القلـب مـن منامـه، صعد إلـى الله بهمـه وحبه وأشـواقه مشـتاقًا إليه طالبًـا له محتاجًـا إليه عاكفًـا عليه... فـأول ما يجري على لسـانه ذكـر محبوبـه، والتوجه إليه واسـتعطافه... والاسـتعانة بـه أن لا يخلـي بينـه وبيـن نفسـه، وأن لا يكله إليهـا فيكله إلـى ضعـف وعجـز وذنـب وخطيئة، بـل يـكلأه كلاءة الوليـد الذي لا يملك لنفسـه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشـورًا، فحاله كحال المحـب الـذي غـاب عـن محبوبه الـذي لا غنى لـه عنه ولا بد لـه منه، وضرورتـه إليـه أعظـم مـن ضرورتـه إلـى النفـس والطعام والشـراب، فـإذا نـام غـاب عنـه، فـإذا اسـتيقظ عـاد الحنين إليـه، فـأول ما يبـدأ به الحمـد للـه الـذي أحيانا بعـد مـا أماتنا وإليـه النشـور، متدبـرًا لمعناها مـن ذكـر نعمـة اللـه عليه بـأن أحيـاه بعد نومـه الـذي هو أخـو الموت وأعـاده إلـى حاله سـويًا سـليمًا محفوظًا ممـا لا يعلمـه ولا تخطر بباله مـن المؤذيـات والمهلـكات مـن شـياطين الإنـس والجـن،... فمن ذا

(١) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد: ٤٤١ برقم ١٢٤٥، ورواه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وضعفه العراقي في المغني عن حمل الأسفار- إحياء علوم الدين- (١/ ٣٤٣).

الـذي كلأه وحرسـه وقـد غـاب عنـه حسـه وعلمـه وسـمعه وبصـره، ولهـذا ذكّر سـبحانه عبـاده هـذه النعمة وعدهـا عليهم مـن جملة نعمه فقـال: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[1]، فـإذا تذكـر العبـد ذلك فقـال: الحمـد لله، كان حمـده أبلـغ وأكمـل من حمـد الغافل عن ذلـك، ثم تفكر فـي أن الذي أعـاده بعـد هـذه الإماتة -حيًا سـليمًا- قـادر علـى أن يعيده بعـد موتته الكبـرى حيًـا كمـا كان، ولهـذا يقـول بعدهـا: ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[2] ثـم يقـول: «لا إلـه إلا اللـه وحده لا شـريك له لـه الملك ولـه الحمد وهو علـى كل شـيءٍ قديـر، سُـبحان الله والحمـد للـه ولا إله إلا اللـه والله أكبـر ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه»، ثـم يدعـو ويتضـرع، ثم يقـوم إلى الوضـوء بقلـب حاضـر مسـتصحب لمـا فيه، ثـم يصلـي ما كتـب الله لـه صلاة محـب ناصـح لمحبوبه منكسـر بين يديـه، لا صلاة مـدل بها عليـه يرى مـن أعظم نعم محبوبـه عليه أن أقامـه وأنام غيره، واسـتزاره وطـرد غيـره، وأهّلـه وحـرم غيره، فهـو يزداد بذلـك محبة إلـى محبته، ويـرى أن قـرة عينـه وحيـاة قلبـه وجنة روحـه ونعيمـه ولذته وسـروره فـي تلـك الصـلاة، فهـو يتمنـى طـول ليلـه، ويهتـم بطلـوع الفجـر ... وهـو يناجـي ربـه بكلامـه معطيًـا كل آيـة حظها مـن العبوديـة فتجذب قلبـه، وروحه إليـه آيات المحبـة والـوداد، والآيات التي فيها الأسـماء والصفـات، والآيـات التـي تعـرّف إلـى عبـاده بآلائـه وإنعامـه عليهـم

(١) سورة الأنبياء الآية: ٤٢.

(٢) سورة الملك الآية: ١٥.

وإحسانه إليهـم، وتطيـب لـه السـير آيـات الرجـاء، والرحمة، وسـعة البـر، والمغفـرة، فتكـون لـه بمنزلـة الحـادي، الـذي يطيـب له السـير ويهونـه، وتقلقـه آيـات الخـوف، والعـدل، والانتقام، وإحـلال غضبه بالمعرضيـن عنـه العادلين به غيـره، المائلين إلى سـواه، فيجمعه عليه، ويمنعـه أن يشـرد قلبه عنه ... وبالجملة فيشـاهد المتكلم سُـبحانه وقد تجلـى فـي كلامـه، ويعطى كل آيـة حظها مـن عبودية قلبـه الزائدة على مجـرد تلاوتهـا، والتصديق بأنهـا كلام الله، بل الزائـد على نفس فهمها ومعرفـة المـراد منهـا(١)، فـإذا صلى ما كتـب الله لـه جلـس مطرقًا بين يـدي ربـه هيبة لـه وإجلالًا، واسـتغفره اسـتغفار من قد تيقـن أنه هالك -إن لـم يغفـر لـه ويرحمـه-، فإذا قضـى من الاسـتغفار وطـرًا -وكان عليـه بعـد ليـل- اضطجـع على شـقه الأيمـن مريحًا لنفسـه مقويًـا لها علـى أداء الفـرض، فيسـتقبله نشـيطًا بجـده وهمتـه، كأنه لم يـزل نائمًا طـول ليلـه لـم يعمـل شـيئًا، فهـو يريـد أن يسـتدرك مـا فاته فـي صلاة الفجـر فيصلـي السُـنة، ويبتهـل إلـى اللـه بينهـا وبيـن الفريضـة، فـإن لذلـك الوقـت شـأنًا يعرفـه مـن عرفـه، ويكثـر فيه من قـول «يـا حي يا قيـوم لا إلـه إلا أنـت» فلهـذا الذكر فـي هـذا الموطن تأثيـر عجيب، ثم ينهـض إلـى صـلاة الصبح قاصـدًا الصـف الأول عـن يمين الإمـام أو خلـف قفـاه، فإن فاتـه ذلك قصـد القرب منـه مهما أمكن، فـإن للقرب مـن الإمـام تأثيـرًا فـي سـر الصلاة، فـإذا فـرغ من صـلاة الصبـح أقبل

---

(١) طريق الهجرتين: ٢٠٦-٢١١.

بكليتـه على ذكر اللـه، والتوجه إليه بـالأذكار التي شـرعت أول النهار، فيجعلهـا وردًا لـه لا يخـل بها أبـدًا، ثم يزيد عليها ما يشـاء مـن الأذكار الفاضلـة، أو قـراءة القُـرآن حتـى تطلع الشـمس، فإذا طلعت فإن شـاء ركـع ركعتـي الضحـى وزاد مـا شـاء، وإن شـاء قـام مـن غير ركـوع ثم يذهـب متضرعًـا إلـى ربـه، سـائلًا لـه أن يكـون ضامنًـا عليـه متصرفًـا فـي مرضاتـه بقيـة يومـه، فـلا ينقلب إلا في شـيء يظهـر له فيـه مرضاة ربـه، وإن كان مـن الأفعـال العاديـة الطبيعيـة قلبـه عبادة بالنيـة، وقصد الاسـتعانة بـه علـى مرضـاة الـرب، فينقلـب فـي حقـه عبـادة وقربـه، وشـتان كـم بيـن هـذا وبيـن مـن إذا عـرض لـه أمـر مـن أوامـر الـرب -لا بـد لـه مـن فعلـه- فتـش فيـه علـى مـراد لنفسـه، وغـرض لطبعه، ففعـل لأجـل ذلـك، وجعـل الأمـر طريقًا لـه، ومنفـذًا لمقصـده، فهذا عباداتـه عـادات، والأول عاداتـه عبـادات، فـإذا جاء فـرض الظهر بادر إليـه مكمـلًا لـه ناصحًا فيه لمعبـوده، كنصـح المحب الصـادق المحبة لمحبوبـه الـذي قـد طلب منـه أن يعمل له شـيئًا مـا، فهو يبـذل مقدوره كلـه فـي تحسـينه، وإصلاحـه، وإكمالـه، لينـال بـه، رضـى محبوبـه عنـه وقربـه منـه، وبالجملـة فهـذا حـال هـذا العبـد مـع ربه فـي جميع أعمالـه، فهـو يعلـم أنـه لا يوفـي هـذا المقـام حقـه، فهـو أبدًا يسـتغفر اللـه عقيـب كل عمـل، فصاحب المقام مضطـر إلى التوبة والاسـتغفار بعـد الوضـوء، والحـج، والصلاة، وقيـام الليـل، فهو لا يزال مسـتغفرًا تائبًـا، وكلمـا كثـرت طاعاتـه كثـرت توبتـه واسـتغفاره، وجمـاع الأمر

في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله في الظاهر والباطن فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبة ما أحبه، وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه وبذل الجهد في تركه، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة لا للأمارة ولا للوامة، فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل، وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول لا مخالف له، ويكون مع ذلك قائمًا بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها، فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه على مقتضى الوحي والفطرة والعقل فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ولا يخاف عليه إلا من ضعف همته، فإذا كانت همته عالية فذاك السابق بالخيرات حقًا، فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب، وفتحه عجب، صاحبه سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه ... والله يختص برحمته من يشاء»[١] أ.هـ.

وقال أيضًا- في موضع آخر في وصف السابقين المقربين:

«ومن شأن القوم أنهم أسلموا إلى الله سبحانه التدبير كله، فلا يزاحم تدبيرهم تدبيره، ولا اختيارهم اختياره، لتيقنهم أنه

---

(١) انظر: طريق الهجرتين: ٢٠٦-٢١٦ بتصرف واختصار.

الملك القاهر القابض على نواصي الخلق المتولي تدبير أمر العالم كله، وتيقنهم مع ذلك أنه الحكيم في أفعاله الذي لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة فلم يدخلوا أنفسهم معه في تدبيره لملكه وتصريفه أمور عباده بلو كان كذا وكذا، ولا بعسى ولعل، ولا بليت، بل ربهم أجل وأعظم في قلوبهم من أن يعترضوا عليه أو يتسخطوا تدبيره أو يتمنوا سواه، وهم أعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أن يتهموه في تدبيره أو يظنوا به الإخلال بمقتضى حكمته وعدله ... وهو سُبحانه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء، وهو أحكم الحاكمين، وأحسن الخالقين، له في كل شيء حكمة بالغة، وفي كل مصنوع صنع متقن، والرجل إذا عاب صنعة رجل آخر وذمها سرى ذلك إلى صانعها... فالعارف لا يعيب إلا ما عابه الله، ولا يذم إلا ما ذمه، وإذا سبق إلى قلبه ولسانه عيب ما لم يعبه الله، وذم ما لم يذمه الله، تاب إلى الله منه، كما يتوب صاحب الذنب من ذنبه، فإنه يستحي من الله أن يكون في داره وهو يعيب الآت تلك الدار وما فيها، ولهذا ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه»[1] والمقصود أن من شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار، بل همهم كله في إقامة حق الله عليهم، وأما التدبير العام والخاص فقد سلموه لولي الأمر كله ومالكه الفعال لما يريد سُبحانه، فالسابق المقرب

(١) رواه البخاري - كتاب الأطعمة - انظر: فتح الباري (٤/ ٥٠٨) برقم ٢٣٧٧ .

يكـون ابـن وقتـه لا ينتظـر وقتًـا آخر يدبر نفسـه فيـه، لأن ذلـك الوقت بيـد موقتـه سـبحانه وتعالـى، لـذا يـرى نفسـه بمنزلـة الميت فـي قبره، ينتظـر مـا يفعـل به، مستسـلم للـه، منقطـع المشـيئة والاختيـار، هذا ما يجـري علـى أحدهـم مـن فعل اللـه، وحكمـه، وقضائـه الكونـي، فإذا جـاء الأمـر جـاءت الإرادة، والاختيـار، والجـد، والسـعي، واسـتفراغ الفكـر، وبـذل الجهـد، ... وهـو مـع ذلك مسـتعين بربـه، قائـم بحوله وقوتـه، ملاحـظ لضعفه وعجزه، قـد تحقق معنـى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[1]... فهـو ناظـر بقلبـه إلى مـولاه الذي حركه، مسـتعين بـه فـي أن يوفقـه لمـا يحبـه ويرضـاه، فـإذا وردت عليهـم أقـداره التي تصيبهـم بغيـر اختيارهـم قابلوهـا بمقتضاهـا مـن العبوديـة، وهـم فيها علـى مراتـب ثلاثة:

أحدهـا: الرضـى عنـه فيهـا، والمزيـد مـن حبـه، والشـوق إليـه، وهـذا نشـأ مـن مشـاهدتهم للطفـه فيهـا، وبـره، وإحسـانه العاجـل والآجـل، ومـن مشـاهدتهم حكمتـه فيهـا ونصبهـا سـببًا لمصالحهم، وشـوقهم بهـا إلـى حبـه ورضوانـه.

المرتبـة الثانيـة: شـكره عليهـا كشـكره علـى النعـم، وهـو فـوق الرضـى عنـه بهـا ومنـه ينتقـل إلى هـذه المرتبـة، فهـذه مرتبتـان لأهل هـذا الشـأن -يعنـي السـابقين بالخيـرات-.

المرتبـة الثالثـة: للمقتصديـن وهـي مرتبـة الصبـر التـي إذا نـزل

(١) سورة الفاتحة الآية: ٥.

منها نزل إلى نقصان الإيمان وفواته من التسخط والتشكي واستبطأ الفرج، واليأس من الروح، والجزع الذي لا يفيد إلا فوات الأجر وتضاعف المصيبة.

فالصبر أول منازل الإيمان ودرجاته وأوسطها وآخرها، فإن صاحب الرضى لا يعدم الصبر في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يتحقق الرضى والشكر، لا تصور ولا تحقق لهما دونه وهكذا كل مقام مع الذي فوقه، كالتوكل مع الرضى، وكالخوف والرجاء مع الحب[1] أ.هـ.

وقال أيضًا: «الزهد أقسام:

أحدها: فرض على كل مسلم وهو الزهد في الحرام...

الثاني: زهد مستحب، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه، وهو الزهد في المكروه، وفضول المباحات، والتفنن في الشهوات المباحة.

الثالث: زهد الداخلين في هذا الشأن -يعني: السابقين بالخيرات- وهم المشمرون في السير إلى الله وهو نوعان:

١- الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تخليها من اليد، ولا إخراجها وقعوده صفرًا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده، فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها

---

(١) طريق الهجرتين: ٢١٦ - ٢١٩. بتصرف واختصار.

مـن قلبك وهـي في يـدك، وهذا كحـال الخلفـاء الراشـدين، وعمر بن عبـد العزيـز الذي يضـرب بزهـده المثل مـع أن خزائن الأمـوال تحت يـده، بـل كحـال سـيد ولـد آدم ﷺ حيـن فتـح الله عليـه مـن الدنيـا ما فتـح، ولا يزيـده ذلـك إلا زهـدًا فيها، والـذي يصحّح هـذا الزهد ثلاثة أشياء:

أ- علـم العبـد أنهـا ظـل زائـل وخيـال زائـر وإنهـا كمـا قـال الله تعالـى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾[1]، وكمـا قـال سُـبحانه: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[2]، وسـماها سُبحانه ﴿ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[3] ونهى عـن الاغترار بهـا، وحذرنا عن سـوء عاقبـة المغترين بهـا، وحذرنا من مصارعهـم، وذم مـن رضـي بهـا واطمـأن إليهـا قـال النبـي ﷺ: «مالي وللدنيـا إلا كراكـب اسـتظل تحت شـجرة ثـم راح وتركها»[4].

ب- علمـه أن وراءهـا دارًا أعظم منهـا قدرًا وهـي دار البقاء، وإن نسـبتها إليهـا كما قـال ﷺ: «ما الدنيا فـي الآخرة إلا كمـا يجعل أحدكم أصبعـه في اليـم فلينظر بـم يرجع»[5].

---

(١) سورة الحديد الآية: ٢٠.

(٢) سورة الكهف الآية: ٤٥.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٨٥، سورة الحديد الآية: ٢٠.

(٤) رواه الترمذي - كتاب الزهد (٤/ ٥٠٨) برقم ٢٣٧٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) رواه مسلم في صحيحه - صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب صفة الجنة (١٧/ ١٩٢)، ولابن

ج- معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها.

٢- الزهد في نفسك وهو أصعب الأقسام وأشقها وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يلجوه، وهو نوعان:

أ- وسيلة بداية: وهو أن تميت نفسك فلا يبقى لها عندك من القدر شيء، فلا تغضب لها ولا ترضى لها، ولا تنتصر لها، ولا تنتقم لها، قد سبّلت عرضها ليوم فقرها وفاقتها، فهي أهون عليك من أن تنتصر لها أو تنتقم لها، أو تجيبها إذا دعتك، أو تكرمها إذا عصتك، أو تغضب لها إذا ذمّت، أو ترّفهها عما فيه حظك وفلاحك وإن كان صعبًا عليها.

ب- غاية وكمال: وهو أن يبذلها لمحبوبه جملة بحيث لا يستبقى منها شيئًا ... بل يزهد فيها زهد المحب ... وجميع مراتب الزهد المتقدمة مبادئ ووسائل لهذه المرتبة، ولكن لا تصح إلا بتلك المراتب، فمن رام الوصول إليها بدون ما قبلها فمتعنٍّ متمنٍّ كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سلّم ... إلخ[1].

قلت: المقصود إن للسابقين بالخيرات أعمالًا طيبة صالحة، فهم يسارعون في الخيرات، ويتنافسون فيها، كما قال تعالى:

---

تيمية رحمه الله كلام حول الزهد في الدنيا- انظره في مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٤-١٥٠).

(١) انظر: طريق الهجرتين: ٢٥١-٢٥٤.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[١] الآيـة، وكمـا قـال تعالـى ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[٢] الآيـة، وكما قال سُـبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[٣]، وكمـا قـال سُـبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾[٤].

فالسـابقون بالخيـرات لا يسـمعون آيـة أو حديثًا إلا سـارعوا إلى تطبيقـه، وعملـوا بـه بقـدر اسـتطاعتهم، فـإذا سـمعوا فضائـل التبكيـر إلـى الجُمُعـة سـارعوا إليهـا من أول سـاعة رجـاء الثـواب، وإن علموا بإجابـة الدعـاء فـي آخـر الليـل أو فـي نهـار الجُمُعـة تحـروا الإجابـة بدعائهـم فـي تلـك السـاعة، فلا يتركـون شـيئًا مـن الخير إلا سـارعوا إليـه وتنافسـوا فيـه، فهم لهـم صفـات وأعمـال يعملونهـا جعلتهم في منزلـة عالية عنـد ربهم، ولهم مقامات فـي الزهد[٥]، والـورع، والصبر، والشـكر، والتـوكل، والصـلاة، والـزكاة، والصوم، والحـج، والجهاد، والعلـم، واليقيـن، وكل خصـال التقـوى، والأعمـال الصالحـة ضربوا فيهـا بسـهم، واختـاروا أعلاهـا، ومـع ذلك فلـم يزكـوا أنفسـهم، ولم يتكلـوا علـى أعمالهـم، فهم يعلمـون أنه لن يدخـل أحد الجنـة بعمله، وإنمـا يدخلهـا برحمة الله وفضلـه، ولو ذهبنـا نعدّد أعمالهـم لطال بنا

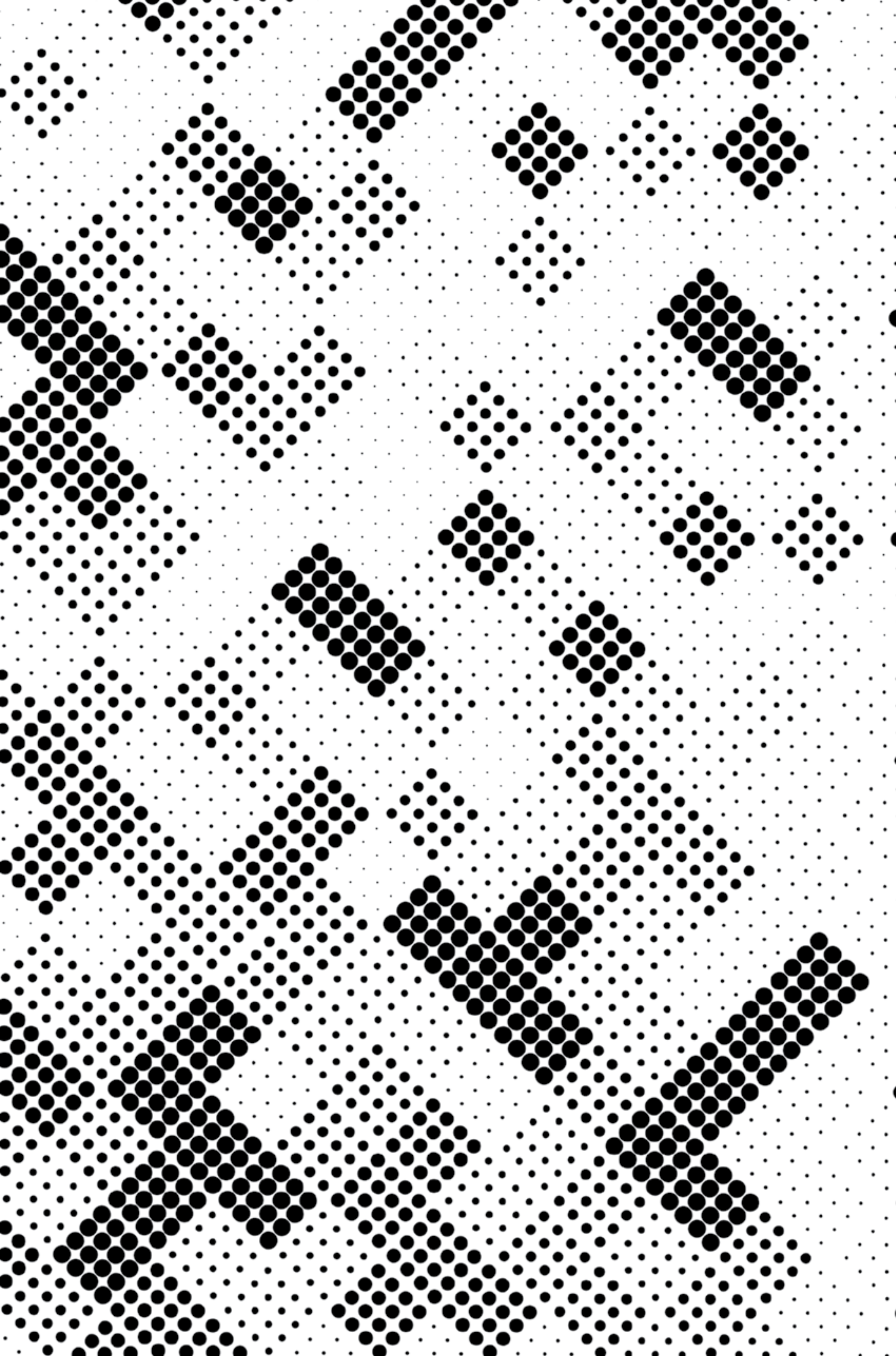
(١) سورة آل عمران الآية: ١٣٣.
(٢) سورة الحديد الآية: ٢١.
(٣) سورة المطففين الآية: ٢٦.
(٤) سورة الصافات الآيتان: ٦٠-٦١.
(٥) لابن تيمية كلام في الورع والزهد، أطلعت على بعضه في مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٣٧-١٥٢) فمن أراد أن يراجعه فهو مفيد.

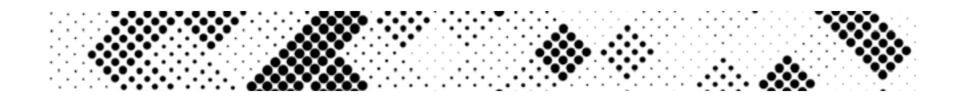
المقام، ولكن هذه نبذة من أخبارهم يكفي عنها تعريفهم السابق[١]، وأنهم هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، ولم يشتغلوا بفضول المباحات، فقد تركوا فضول النظر، وفضول الكلام، وفضول الأكل، وفضول النوم، وفضول مخالطة الناس[٢]، نسأل الله سُبحانه أن يجعلنا من المتقين، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يعيننا على أعمالهم، وأن يبلغنا مراتبهم ومنازلهم، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، اللهم إنّا نسالك الهُدى والتُقى والعفاف والغنى، اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا، اللهم إنا نعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن عينٍ لا تدمع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لها، اللهم أجعل أعمالنا كلها صالحة، ولوجهك خالصة، ولا تجعل لأحد فيها شيئًا، اللهم إنا نعوذ بك من أن نُشركَ بك شيئًا ونحن نعلم، ونستغفرك من الشرك الذي لا نعلم. وصلى الله على نبينا محمد،،،

---

(١) انظر: صفحة ٦٦.

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٠٥-٣١١).





## الخاتمة

الحمـد للـه والصـلاة والسـلام علـى رسـول اللـه وعلـى آلـهِ وصحبـهِ أجمعيـن أمـا بعـد:

فقـد اسـتفدت من هـذا البحـث على صغـر حجمه فوائـد عظيمة أسـأل اللـه رب العـرش العظيـم أن ينفعنـي بهـا وجميـع إخوانـي المسـلمين ومـن أهـم الفوائـد مـا يأتـي:

١ – أن أقسام التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية.

الثانـي: توحيـد الأسـماء والصفـات –ويسـميهما بعـض العلماء توحيـد فـي المعرفـة والإثبات–.

الثالث: توحيد الألوهية –ويسمى توحيد في القصد والطلب–.

٢ – أن أقسام الموحدين سبعة:

أحدها: سابق بالخيرات.

والثاني: مقتصد.

والثالـث: ظالم لنفسـه خرج من قبـره وليس عليـه خطايا وذنوب قـد حطّـت عنـه الكبائـر إمـا بعـذاب في قبـره وإمـا بصدقـة جاريـة أو بعلـم ينتفـع بـه أو ولـد صالح يدعـو له، فجـاء يـوم القيامة ليـس عنده

إلا حسنات قد حطت عنه سيئاته.

والرابع: من الظالمين الموحدين أيضًا ولكنهم خرجوا من قبورهم وعليهم ذنوب وخطايا فلما وزنت حسناتهم وسيئاتهم غلبت حسناتهم على سيئاتهم، فهؤلاء الأربعة يدخلون الجنة لأول وهلة من دون عذاب في النار، نسأل الله الكريم من فضله.

وأما القسم الخامس: فهم قوم من الظالمين الموحدين أيضًا ولكنهم خرجوا من قبورهم وعليهم ذنوب وخطايا فلما وزنت سيئاتهم وحسناتهم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء هم أهل الأعراف يقفون على مكان مرتفع بين الجنة والنار ما شاء الله وإلى أن يشاء الله ثم يؤمر بهم لدخول الجنة بالشفاعة.

والسادس: هم قوم من الظالمين الموحدين أيضًا ولكنهم لما رجحت سيئاتهم على حسناتهم أمر بهم لدخول النار ثم ردُّوا من دونها بالشفاعة وبرحمة الله عز وجل.

وأما القسم السابع: فهم كذلك مثل القسم السادس ولكنهم أمر بهم لدخول النار ولم يؤذن فيهم بالشفاعة حتى دخلوها واحترقوا فيها حتى إذا طهرتهم النار أذن فيهم بالشفاعة فأخرجوا من النار بالشفاعة وأدخلوا نهر الحياة ونبتوا فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل ثم بيض الله وجوههم وأدخلهم الله الجنة، فهذه أقسام الموحدين.

وأما المشركون الشرك الأكبر، والكافرون الكفر الأكبر،

والمنافقـون النفـاق الاعتقـادي، فنعـوذ باللـه مـن حالهـم حيـث يُخلـدون فـي النـار، ولا يُقبـل فيهـم شـفاعة، ولا يُؤخـذ منهـم عـدل، ولا هـم ينصـرون، ولا يسـتعتبون، وهـم في النـار أبدا الآبـاد، خالدين مخلديـن، لا يقضـي عليهـم فيموتـوا، ولا يُخفـف عنهـم مـن عذابها، نعـوذ باللـه منهـم ومـن أعمالهـم، اللهم إنك عفـو تحب العفـو فاعف عنا .

وفـي الختـام أوصـي نفسـي وإخوانـي بتقـوى اللـه سُـبحانه حق تقاتـه، قال اللـه تعالـى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ** ﴾[١]، والتقـوى هـي وصيـة اللـه للأوليـن والآخريـن قـال تعالـى: ﴿ **وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ** ﴾[٢] الآيـة، ولا ينجـو مـن النـار إلا مـن اتقـى اللـه، واللـه يحـب المتقيـن، والله مـع المتقين «معيـة خاصة»، يؤيدهـم وينصرهم ويوفقهـم ويعينهـم ويثبتهـم، نسـأل اللـه الكريـم مـن فضلـه، وأعظـم التقـوى التوحيـد وتـرك الشـرك، ولا يبلغ العبـد أن يكون مـن المتقين حتـى يـدع مـا لا بـأس بـه حـذرًا لمـا بـه البـأس[٣]، وتمـام التقـوى أن تتقـي اللـه حتـى تتـرك مـا تـرى أنه حـلال خشـية أن يكـون حرامًـا[٤]، وقـال ابـن عمـر رضي الله عنه: « يبلـغ العبد حقيقة التقـوى حتى يدع مـا حاك في

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٢.
(٢) سورة النساء الآية: ١٣١.
(٣) ورد معناه في سُنن الترمذي (٤/ ٥٤٧) كتاب صفة القيامة برقم ٢٤٥١، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ٨٤٦)، وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٩٣).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى، انظر: فتح الباري (١/ ٤٥).

الصـدر»[١]، ولهـذا أمـر الله سُـبحانه نبيه محمـدًا ﷺ بالتقـوى فقال عز وجـل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[٢] الآيـة، وأوصى بها النبـي ﷺ أصحابه فقـال لأحدهـم: «اتـق الله حيثمـا كنـت»[٣]، وتقـوى الله سـبب العلم قـال تعالـى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[٤]، والتقـوى سـبب قبـول العمـل قـال تعالـى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٥]، وقـد وصـف اللـه المتقيـن بصفـات عظيمـة نبيلـة، فـي سـورة آل عمـران، والذاريـات، والطـور، وغيرهـا، لـذا هذه وصيتـي لإخواني «منسـوبي القـوات المسـلحة[٦] وغيرهم مـن المسـلمين» أن يجعلـوا بينهم وبين غضـب اللـه وقايـة باتباع أوامـره واجتناب نواهيـه[٧]، فـإذا عملوا ذلك فأبشـرهم بالجنـة، واللـه العظيـم إنـه لحـق، فاللـه لا يخلـف الميعاد، وقولـه الحـق، وهـو الحـق سُـبحانه، والله لا يضيـع عمل عامـل منكم مـن ذكـر أو أنثـى، والله لا يضيـع أجر من أحسـن عملًا، وآخـر دعوانا أن الحمـد للـه رب العالميـن، وصلـى اللـه وسـلم علـى نبينـا محمـد وعلـى آلـهِ وصحبـه أجمعين،،،

(١) رواه البخاري معلقًا تعليقاً مجزومًا به، انظر: فتح الباري (١/ ٤٥).
(٢) سورة الأحزاب الآية: ١.
(٣) رواه الترمذي (٤/ ٣١٣) في كتاب البر والصلة برقم ١٩٨٧.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٨٢.
(٥) سورة المائدة الآية: ٢٧.
(٦) كان شيخنا -رحمه الله رحمة واسعة- كبير المرشدين الدينيين في القوات المسلحة في حينها. (محمد).
(٧) انظر: تعريف التقوى في مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٠/ ١٣٢، ١٣٥).



## المصادر والمراجع

١. إتحاف المهرة لابن حجر.

٢. اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم.

٣. إرواء الغليل للألباني.

٤. الاستقامة لابن تيمية.

٥. أضواء البيان للشنقيطي.

٦. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم.

٧. بدائع الفوائد لابن القيم.

٨. بلوغ المرام لابن حجر.

٩. تاريخ نجد لابن غنام.

١٠. تخريج أحاديث منتقدة- تخريج الشيخ فريح البهلال.

١١. تخريج إحياء علوم الدين- استخراج محمود الحداد.

١٢. تفسير القُرآن العظيم لابن كثير.

١٣. التقوى لابن أبي الدنيا.

١٤. التكميل لما فات تخريجه من إرواء الغليل

١٥. تهذيب تاريخ دمشق.

١٦ . تيسير العزيز الحميد.

١٧ . تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي.

١٨ . جامع البيان لابن جرير الطبري.

١٩ . جامع الرسائل لابن تيمية.

٢٠ . الدرر السنية في الأجوبة النجدية.

٢١ . الرد على الجهمية للدارمي.

٢٢ . الزهد لابن المبارك.

٢٣ . سنن أبي داود.

٢٤ . سنن الترمذي.

٢٥ . شرح السنة للبغوي.

٢٦ . شرح الطحاوية.

٢٧ . شرح العقيدة الواسطية لابن فوزان.

٢٨ . -شفاء العليل لابن القيم.

٢٩ . صحيح البخاري.

٣٠ . صحيح الجامع للألباني.

٣١ . صحيح مسلم بشرح النووي.

٣٢ . طريق الهجرتين لابن القيم.

٣٣ . العقيدة الواسطية لابن تيمية، وشرحها لابن فوزان.

٣٤. العلو للذهبي.

٣٥. عنوان المجد لابن بشر.

٣٦. فتح الباري لابن حجر.

٣٧. الفوائد القُرآنية لابن سعدي.

٣٨. القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين.

٣٩. كتاب التوحيد لابن خزيمة.

٤٠. للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

٤١. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي.

٤٢. مجموع الفتاوى لابن تيمية.

٤٣. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لابن باز.

٤٤. المستدرك للحاكم.

٤٥. مسند الإمام أحمد.

٤٦. مشكاة المصابيح.

٤٧. المصنف لابن أبي شيبه.

٤٨. المصنف لعبد الرزاق الصنعاني.

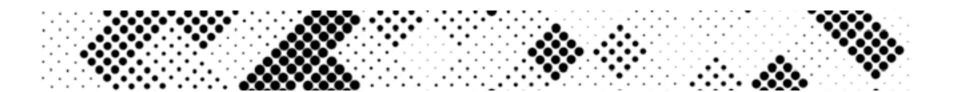
٤٩. المعجم الكبير للطبراني.

٥٠. منتقى الأخبار لمجد الدين أبي البركات.

٥١. منهاج السنة لابن تيمية.

٥٢. النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد لجاسم الفهيد الدوسري.

٥٣. هداية الحيارى في أجوبة النصارى لابن القيم.



# فهرس الموضوعات

**الموضوع** **صفحة**